

المائة النيرة

، في أحوال الموت والبرزخ
والدار الآخرة

عن أبي بصير
عن أبي بصير
عن أبي بصير
عن أبي بصير
عن أبي بصير
عن أبي بصير
عن أبي بصير
عن أبي بصير
عن أبي بصير
عن أبي بصير

أعده
أبو عمر الأثري

المائة النيرة

في أحوال الموت والبرزخ، والدار الآخرة

إعداد:

أبي عمر الأثري

إلى بُنَيِّ الحبيب:

﴿ عُمَر ﴾

إلى روحٍ سبقتني إلى رحمة الله،
وغابت عن عيني، لكنها لم تغب عن قلبي وعن دعائي،
أسأل الله العظيم أن يتقبلك أحسن قبول،
وأن ينزلك خير منزل،
وأن يجعل لقائي بك في الفردوس موعدًا لا ينقطع،
حيث لا فراق، ولا وجع، ولا وداع

آمين

خطبة الكتاب

الحمد لله الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، خلق الخلق لعبادته، وجعل الدنيا دار عملٍ وابتلاء، والآخرة دار جزاءٍ وبقاء، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تُثير القلوب، وتثبت الأركان يوم تنزل الأقدام، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد.

فإن الإيمان باليوم الآخر ركنٌ عظيم من أركان الإيمان، لا يستقيم إيمان العبد إلا به، ولا يصلح قلبه إلا إذا استحضر أن لهذه الحياة نهاية، وأن وراء الموت حياةً أخرى، وأن الإنسان سينتقل من دارٍ إلى دار، ومن مرحلةٍ إلى مرحلة، حتى يقف بين يدي ربه للحساب والجزاء.

والموت ليس خاتمة المطاف، بل هو بداية الرحلة إلى الدار الآخرة، وأول منازلها، فمنذ أن تتسلَّ الروح من الجسد، تبدأ أحوال البرزخ بما فيها من نعيم أو عذاب، وسؤالٍ وفتنَةٍ، ثم يأتي النفخ في الصور، والبعث، والحشر، والعرض، والحساب، والميزان، والصراط، حتى يستقر أهل السعادة في جنات النعيم، وأهل الشقاء في دركات الجحيم، نسأل الله من فضله، ونعوذ به من عدله وعقابه.

ولما كانت هذه القضايا من أمور الغيب التي لا مجال للعقول أن تستقل بإدراكها، كان الواجب الوقوف عند نصوص الوحيين: كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، إذ هما المصدر الصادق الذي لا يأتيه الباطل، وفيهما البيان الشافي لأحوال الموت والبرزخ والقيامة والجنة والنار.

ومن هذا المنطلق جاء هذا الكتاب الموسوم بـ «المائة النيرة، في أحوال الموت والبرزخ، والدار الآخرة»، وقد جمعت فيه نحو مائة حديث نبوي تدور حول هذه الموضوعات العظيمة، مع الحرص على ترتيبها ترتيباً يوافق تسلسل أحداث الدار الآخرة، وقد قسمتها إلى ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول:** يتضمن نحو عشرين حديثاً في ذكر الموت وسكراته، وخروج الروح، وما يلقاه العبد في قبره.

- **القسم الثاني:** يتضمن أربعين حديثاً في وصف القيامة وأهوالها، ابتداءً بالنفخ في الصور، وما يتلو ذلك من النشور، والحشر، والشفاعة، والحساب، والميزان، والصراط.

- **القسم الثالث:** يتضمن أربعين حديثاً في بيان ما أعده الله تعالى لأوليائه في الجنة، وما أعده لأعدائه في النار، ليكون القارئ كأنه يطالع رحلة الإنسان من آخر لحظات الدنيا إلى مستقره الأبدي.

ولم يقتصر عملي في هذا الكتاب على جمع الأحاديث، بل أتبعْتُ كل حديث بشرح مختصر يوضح معناه، ويقرب ألفاظه، ويكشف ما فيه من المقاصد والهدايات، مع بيان أبرز فوائده العقديّة والتربويّة والسلوكيّة، بأسلوب موجز بعيد عن التّطويل، ليكون قريباً من عامة القراء، ونافعاً لطلاب العلم، وصالحاً لأن يُقرأ في المجالس، ويُدرّس في حلقات العلم، ويُنتفع به في الخطب والدروس.

وقد حرصت ما استطعت على العناية بصحة الروايات، والاعتماد على شروح أهل العلم، والاقتصار في البيان على ما تدعو إليه الحاجة، دون تكلف أو إسهاب، رجاء أن يكون هذا العمل جامعاً بين صحة المادة، وحسن العرض، وسهولة الانتفاع.

وإن أشد ما تحتاج إليه القلوب في زمن كثرت فيه الغفلة، واستولى حب الدنيا على النفوس، هو ما يوقظها من رقدتها، ويذكرها بقرب الرحيل، ويبعث فيها الخوف من الله والرجاء فيما عنده، فإن تذكر الموت يزهد في الفاني، وتذكر البرزخ يحمل

على محاسبة النفس، واستحضار أهوال القيامة يردع عن المعاصي، والشوق إلى الجنة يدفع إلى الطاعات، والخوف من النار يحجز عن المحرمات.

وأسأل الله الكريم، رب العرش العظيم، أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، وأن يجعله شاهداً لنا لا علينا، وأن يرزقنا حسن الاستعداد للموت، والثبات عند السؤال، والأمن يوم الفزع الأكبر، والفوز بجنات النعيم، والنجاة من النار، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

القسم الأول

بعض ما جاء من الأخبار في الموت وحياة البرزخ

الحمد لله الذي كتب الموت على عباده، وجعله سبيلاً إلى الدار الآخرة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الموت حقيقة كبرى لا يملك أحد دفعها، وسنة ماضية لا يستثنى منها بشر، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهو أول منازل الآخرة، وبوابة العبور من دار العمل إلى دار الجزاء، ومن الحياة الفانية إلى الحياة الباقية، وما أكثر الغافلين عنه مع يقينهم بوقوعه، وما أشد حاجة القلوب إلى تذكره والاستعداد له قبل أن يفجأ الإنسان أجله فلا يجد إلى التأخير سبيلاً.

وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة ببيان ما يلقاه العبد عند مفارقتة الدنيا، وما يقع له منذ خروج روحه من جسده، وما تشهده تلك اللحظات العظيمة من بشارات أو نُذُر، ثم ما يكون بعد ذلك من فتنة القبر ونعيمه أو عذابه، وسؤال الملكين، وأحوال الأرواح في البرزخ، إلى أن يأذن الله بقيام الساعة ويبعث الخلائق للحساب والجزاء.

ولما كانت هذه المسائل من أمور الغيب التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من طريق الوحي، كان من الواجب العناية بالأحاديث النبوية الصحيحة الواردة فيها، وجمعها وتقريبها للناس؛ لتكون زاداً للمتذكر، وعظة للغافل، وتثبيتاً للمؤمن، ودافعاً إلى الاستقامة والتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

وهذه طائفة من الأخبار الواردة في ذلك، تتناول حقيقة الموت، وخروج الروح، واستقبال الملائكة لها، وما يجري للعبد في قبره، وما يتعلق بأحوال البرزخ إلى قيام الساعة، وأبدأها بالحديث التالي:

الحديث الأول

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَّاتِ»، يَعْنِي الْمَوْتَ^(١).

هازم بالذال: معناها قاطع، ويحتمل أن يكون بالذال، وهو قريب من معناه هذا، واللذات المراد بها: شهوات الدنيا مما يهفو الناس إليه، فإن الموت يقطع التمتع بهذه الشهوات، بمنع الإنسان من الانخراط فيها، وذكر الموت يعدل مسار الإنسان العاصي إلى الزيادة في أفعال الجنة، والابتعاد عن كل ما يقرب من النار، فضلاً عنه أنه يحجز الإنسان عن ترك نفسه لمشاغل الدنيا وحظوظها، ويحضه على العمل لآخرته. قال القرطبي رحمه الله: "ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، لقطعه عنها"^(٢)، نسأل الله السداد.

* * *

(١) رواه الترمذي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وأحمد (٧٩٢٥)، وابن حبان (٢٩٩٢)، والحاكم (٧٩٠٩).

(٢) التنكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: ص (١٢٣).

الحديث الثاني

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكُوعٌ - أَوْ غُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ - فَجَعَلَ يَدْخُلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ»، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»، حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ^(١).

وفي رواية أخرى عنها قالت: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْمَوْتِ، وَعِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ، وَهُوَ يَدْخُلُ يَدَهُ فِي الْقَدَحِ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالْمَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ»، أَوْ «سَكْرَاتِ الْمَوْتِ».

الركوة: هي قربة من جلد مملوءة بالماء، وكان النبي صلى الله عليه وآله يتوجع من مرضه، فلما قربوا الركوة منه جعل يدخل يده الشريفة فيها، فيأخذ منها بعض الماء، ثم يمررها على وجهه، لعله يخفف من حرارة الحمى والوجع الذي به، صلى الله عليه وسلم، وسكرات الموت: ما يصاحبه من شدائد وأهوال وآلام عظيمة، وقوله: "اللهم في الرفيق الأعلى": هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وقيل: بل المراد الجنة، وقيل: هم جماعة الأنبياء الذين يسكنون أعلى عليين، سأل ربه أن يلحقه بهم، وهو خيرهم وإمامهم، صلى الله عليه وسلم.

قال أهل العلم: إن سكرات الموت لا بد منها لكل أحد، المؤمن والكافر، فهي تصيب كل إنسان، لكنها تختلف من شخص لآخر شدة وضعفًا، إلا أن الأغلب خفتها على المؤمنين وشدتها على الكفار، وإنما يشدد على الأنبياء في السكرات حتى يزداد لهم في الأجر، وقد تشدد على بعض المؤمنين لرفع درجاتهم وتكفير سيئاتهم، كما قد تكون خفيفة على كثير منهم، وقد صح الخبر عن الشهيد: أن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ

(١) رواه البخاري (٦٥١٠) ومواضع، والترمذي (٩٧٨)، وابن ماجه (١٦٢٣)، وأحمد (٢٤٣٥٦).

أَحْذَكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ»^(١).

والقرصة: هي الضغط بأصبعين على لحم الإنسان، وقيل: المقصود عضه النملة ونحوها، والمراد: أن الشهيد لا يجد ألماً عندما يلقي حتفه، قال المناوي: "وهذه تسليية لهم عن هذا الحادث العظيم، والخطب الجسيم، وتهيج الصبر على وقع السيوف واقتحام الحتوف"^(٢). قلت: فالشهيد إذن يستثنى من سكرات الموت، ويستثنى منه أكثر المؤمنين، إلا من أراد الله تكفير بعض ذنوبهم ورفع درجاتهم، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "شدة الموت لا تدل على نقص في المرتبة، بل هي للمؤمن إما زيادة في حسناته وإما تكفير لسيئاته"^(٣).

قلت: وقد جاء في بعض طرق الحديث: أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «فَلَا أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لِأَحَدٍ أَبَدًا، بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ومعناه: لما رأيت شدة وفاته، علمت أن ذلك ليس من المنذرات الدالة على سوء عاقبة المتوفى، وأن هون الموت وسهولته ليس من المكرمات، وإلا لكان صلى الله عليه وسلم أولى الناس به، فلا أكره شدة الموت لأحد، ولا أغبط أحداً يموت من غير شدة^(٤).

ويستفاد من الحديث: أن الموت حق على كل مخلوق، إذ لو نجا منه أحد لكان سيد الأولين والآخرين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أحق الناس بالنجاة منه، وأن للموت سكرات، وكل من يموت يناله من هذه السكرات وآلامها ما قدره الله تعالى عليه، إلا أن الأغلب أن تكون خفيفة المؤمنين، وشديدة على الكفار، ويؤخذ من الحديث أيضاً: أن شدة سكرات الموت على المؤمن تكون خيراً له، فهي من مكفرات الذنوب، ومن أسباب رفع الدرجات، نسأل الله الرحمة والعافية، وحسن الختام.

(١) رواه النسائي (٣١٦١)، والترمذي (١٦٦٨)، وابن ماجه (٢٨٠٢)، وأحمد (٧٥٩٣).

(٢) فيض القدير: (٤/ ١٨٢). (٣) فتح الباري: (١١/ ٣٦٣).

(٤) انظر تحفة الأحوذى: (٤/ ٤٨، ٤٩).

الحديث الثالث

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ -: إِنَّا لَنُكَرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).

اختلف أهل العلم في المراد بلقاء الله، فذهب بعضهم إلى أن المقصود هو الموت، ويدل عليه ظاهر السياق، واعتراض أم المؤمنين عائشة رضي الله بقولها: إنا لنكره الموت، أو كلنا يكره الموت، بينما ذهب آخرون إلى أن المراد بلقاء الله: المصير إلى الدار إلى الآخرة، فعلى القول الأول يكون المقصود: أن المحبة والكرهية الاعتباريتين هما ما يكون عند النزع أو الغرغرة، في الحالة التي لا تقبل فيها التوبة ولا غيرها، فحينئذ يبشر كل إنسان بما هو صائر إليه وما أعد له، ويكشف له عن ذلك، فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أعد لهم، وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه^(٢).

وعلى القول الثاني يكون المقصود: من أحب لقاء الله أي: ترك الدنيا وأبغضها، ورغب فيما عند الله تعالى من الثواب والنعيم، ومن كره لقاء الله أي: أثر الحياة الدنيا وركن إليها، وكره المصير إلى الآخرة^(٣)، وكلا القولين مقارب للآخر ولا يناقضه، والله تعالى أعلم.

والمحصلة: أن الصنف الأول - الذي أحب لقاء الله تعالى - يبشر عند موته بالجنة والنعيم والرضوان، ومصدق ذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي: (١٧/ ١٠). (٣) انظر فتح الباري: (١١ / ٣٦٠).

اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ {
[فصلت: ٣٠]، أما الصنف الثاني - والعياذ بالله - فإنه يبشر بالعذاب والسخط،
كما في قوله جل شأنه: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأُدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال: ٥٠].

وقد بدأ الحديث بذكر أهل الخير والرضوان لشرفهم، وإن كان أهل الشر والسخط
أكثر، وفي الحديث: إثبات صفتي الحب والكره لله تعالى على الوجه الذي يليق
بكماله وجلاله، دون تكييف أو تمثيل، ودون تحريف أو تعطيل، على منهج السلف
رضوان الله عليهم، وأن كراهة الموت لا تقدح في صلاح الإنسان وإيمانه.
وفيه أيضاً: أن المجازاة من جنس العمل، فإنه قابل المحبة بالمحبة، والكره
بالكره، واستشف بعض أهل العلم من هذا الحديث: أن المحتضر إن كان من أهل
الخير والرضوان ظهرت عليه علامات السرور لأنه يبشر عند احتضاره بالنعيم
والرضوان، وأهل الشقاوة نقيض ذلك، نسأل الله العافية.

الحديث الرابع

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»^(١).

المراد بحسن الظن بالله تعالى: رجاء عفوهِ ورحمته، وهو يكون في الدنيا وحال الصحة والرخاء بالإقبال على الطاعات، واجتناب السيئات، ورجاء الثواب على ذلك من الله جل وعلا، أما عند حضور الموت فيكون بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله تعالى وعفوهِ، وما وعد به أهل التوحيد، وما سيبدلهم من الرحمة يوم القيامة، وقد خص الحديث ساعة الموت بالرجاء وحسن الظن لئلا يغلب على الإنسان الخوف حينئذ، فيغلب عليه اليأس والقنوط فيهلك، أعاذنا الله وإياكم.

وينبغي للمؤمن إجمالاً أن يجمع بين الخوف والرجاء معاً حال حياته، فالإيمان يقوم ويكمل بهما، قال تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمر: ٩]، وقال عز من قال: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء: ٥٧]، قال ابن أبي العز الحنفي: "الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته"^(٢)، وشبه أهل التحقيق الإيمان بطائر جناحاه: الخوف والرجاء، فلا يمكنه التحليق إلا بهما معاً، وقال بعض أهل العلم: الخوف في حال الصحة الرخاء أولى لأنه يحجز العبد عن الكبر والمعصية، والرجاء في حال الضعف والشدة أولى، لأنه يحجز الإنسان عن اليأس والقنوط، وكذلك في حال الموت يترجح الرجاء وحسن الظن، فإن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح، والحرص على الإكثار من الطاعات، وقد تعذر ذلك أو

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧)، وأحمد (١٤١٢٥).

(٢) شرح الطحاوية "ط. دار السلام": ص (٣٣٠).

معظمه في هذه الحال، فاستحب الرجاء وإحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له، نسأل الله السداد.

الحديث الخامس

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

"لا إله إلا الله" هي كلمة التوحيد، وكلمة الإخلاص والنجاة، ومعناها: لا معبود حق إلا الله تعالى، وكل معبود سواه باطل، وكلمة التوحيد ها هنا اقتضت على هذا لعمومها على كافة الأمم، وهي في أمتنا تكمل بالشهادة بأن سيدنا محمدًا عبده ورسوله. والمراد بآخر كلامه: عند احتضاره وخروجه من الدنيا، وقد اختلف أهل العلم فيمن قالها عند موته: هل يدخل الجنة رأسًا، ويسقط عنه كل ما قدمه من آثام وإن كثرت، أم أن المقصود: أنه لا بد له من دخولها: إما معجلًا معافي، وإما مؤخرًا بعد عقابه، ومال النووي وغيره إلى القول الأول، إذ قال: "ويجوز في حديث (من) كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة" أن يكون خصوصًا لمن كان هذا آخر نطقه وخاتمة لفظه، وإن كان قبل مخطأً، فيكون سببًا لرحمة الله تعالى إياه، ونجاته رأسًا من النار وتحريمه عليها، بخلاف من لم يكن ذلك آخر كلامه من الموحدين المخطئين"^(٢).

والظاهر: أن من قالها قاصدًا بها التوبة والندم على ما فات منه من ذنوب ومعاصٍ فهي كافية لمغفرة تلك الذنوب والخطايا، وإن تعلقت به حقوق للناس فإن الله تعالى يعوضهم من خزانته، وأما المسلم الذي يُختم له بقول هذه الكلمة، ولا يستحضر بها التوبة من ذنوبه فهي لا تعدو أن تكون علامة خير، وخاتمة حسنة له، ولا تعني بالضرورة أن تُنجيه مما اقتترف من السيئات مما لم تُغفر له، فيدخل الجنة مؤخرًا بعد عقابه، والله تعالى أعلم، ونسأله السداد والعافية.

(١) رواه أبو داود (٣١١٦)، وابن ماجه (٣٧٩٦)، وأحمد (٢٢٠٣٤).

(٢) شرح صحيح مسلم: (١ / ٢٢٠).

الحديث السادس

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

الحديث السابق يختص بالميت ذاته، أما هذا الحديث فإنه يختص بذويه ومن كان حوله عند احتضاره، لأن كلمة التوحيد من علامات حسن الخاتمة للمؤمن، وقد تكون عاصمة له من العذاب في الآخرة على النحو الذي بيناه آنفاً، كما أنه موطن يعرض فيه الشيطان لفتنة ابن آدم عن دينه، فتكون هذه الكلمة عاصمة له من فتنة الشيطان، والله المستعان، والتلقين يكون للمؤمن وغير المؤمن معاً، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عمل على تلقين عمه أبي طالب عند موته^(٢)، وكذا طلبها من غلام يهودي كان يحتضر^(٣).

قال النووي رحمه الله: "والأمر بهذا التلقين أمر ندب، وأجمع العلماء على هذا التلقين، وكرهوا الإكثار عليه والمبالاة، لئلا يضجر بضيق حاله وشدة كربه فيكره ذلك بقلبه، ويتكلم بما لا يليق، قالوا: وإذا قاله مرة لا يكرر عليه إلا أن يتكلم بعده بكلام آخر، فيعاد التعريض به ليكون آخر كلامه"^(٤).

والمراد بالتلقين: تذكير المحتضر بقول "لا إله إلا الله"، كما يعلم الصبيان ونحوهم قولها في الدنيا، والتلقين له صورتان: الأمر، بأن يقال للمحتضر: قل لا إله إلا الله، أو التذكير بترديدها أمامه دون أن يؤمر بقولها، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "ينبغي في هذا أن ينظر إلى حال المريض، فإن كان المريض قوياً يتحمل، أو كان كافراً فإنه يؤمر فيقال: قل: لا إله إلا الله، اختتم حياتك بلا إله إلا الله، وما أشبه

(١) رواه مسلم (٩١٦)، وأبو داود (٣١١٧)، والنسائي (١٨٢٦)، والترمذي (٩٧٦)، وابن ماجه (١٤٤٥)، وأحمد (١٠٩٩٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٠) ومواضع، ومسلم (٢٨).

(٣) رواه أحمد (١٢٧٩٢)، وابن حبان (٢٩٦٠)، والحاكم (٧٧٨٨)، وأصله في الصحيحين.

(٤) شرح صحيح مسلم: (٦ / ٢١٩).

ذلك. وإن كان مسلماً ضعيفاً فإنه لا يؤمر، وإنما يذكر الله عنده حتى يسمع
فيتذكر^(١)، وبالله التوفيق.

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع: (٥ / ٢٤٧).

الحديث السابع

عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا حَضَرْتُكَ الْمَرِيضُ، أَوْ الْمَيِّتُ، فَقُولُوا خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ»، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ قَدْ مَاتَ، قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ، وَأَعِزَّنِي مِنْهُ عَقَبَى حَسَنَةً»، قَالَتْ: فَقُلْتُ، فَأَعِزَّنِي اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

المريض: قيل المراد مرض الموت، وقيل عام في كل مرض، وهذا هو الأظهر والله أعلم، والأمر هنا أمر تأديب وتعليم بما يقال عند المريض والمحتضر، فيدعى للمريض بالشفاء، وللمحتضر بالرحمة والمغفرة، وذلك لأن الملائكة الحاضرين عند المصاب يؤمنون على ما يقوله الحاضرون من الناس، أي: يقولون: آمين، ومعناها: اللهم استجب، ودعاء الملائكة مستجاب، فلا ينبغي للشخص أن يدعو بما فيه مضرة له، أو لغيره.

وقوله: "وأعزني منه عقبى حسنة" أي: عوضني منه عوضًا حسنًا، وبدلاً صالحًا، فأخبرت أم المؤمنين أم سلمة أن الله سبحانه استجاب دعائها، فأعطاهما بدلاً من زوجها الأول أبي سلمة رضي الله عنه من هو خير منه، فقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي الحديث: الندب إلى قول الخير حينئذ من الدعاء والاستغفار له، وطلب الشفاء أو التخفيف عنه ونحوه، وفيه: حضور الملائكة حينئذ وتأمينهم على دعاء الحضور.

(١) رواه مسلم (٩١٩)، وأبو داود (٣١١٥)، والنسائي (١٨٢٥)، والترمذي (٩٧٧)، وابن ماجه (١٤٤٧)، وأحمد (٢٦٤٩٧).

الحديث الثامن

عن بريدة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المُؤْمِنُ يَمُوتُ بِعَرَقِ الْجَبِينِ»^(١).

يبين الحديث علامة من علامات حسن الخاتمة للمؤمن، وهي عرق الجبين عند الاحتضار، واختلف أهل العلم في بيان سببية هذا العرق، فقيل: إنَّ عرق الجبين يكون لما يُعالج من شدة الموت، فيكون فيها تكفير لخطاياها، أو رفع درجاته وثوابه عند الله عز وجل، وقيل: من الحياء، وذلك لأنَّ المؤمن إذا جاءتته البشـرى - مع ما كان قد اقتترف من الذنوب - حصل له بذلك خجل، واستحى من الله، فعرق لذلك جبينه^(٢)، وقيل: هو كناية عن كدِّ المؤمن في طلب الحلال، وتضييقه على نفسه بالصوم والصلاة حتى يلقى الله تعالى، والله أعلم.

وفي الحديث: إثبات أن الموت حق على كل نفس، مؤمنة أو غير مؤمنة، وفيه بيان بعض علامات موت المؤمن، والله المستعان.

(١) رواه النسائي (١٨٢٩)، والترمذي (٩٨٢)، وابن ماجه (١٤٥٢)، وأحمد (٢٢٩٦٤).

(٢) قوت المغنـذي على جامع الترمـذي: (١ / ٣٠٩).

الحديث التاسع

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: اشتكى سعدُ بنُ عبادَةَ شكوى له، فأَتاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُوذُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةٍ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «قَدْ قَضَى؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبَكَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ بُكَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَوْا، فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزَنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذِّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَضْرِبُ فِيهِ بِالْعَصَا، وَيَزِمِي بِالْحِجَارَةِ، وَيَحْنِي بِالْثُرَابِ^(١).

قوله: "اشتكى شكوى له" أي: اشتكى من مرض شديد ألم به، لذا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة رضوان الله عليهم لعيادته، وقوله: "فوجده في غاشية من أهله" أي: تغشاه أهله وأحاطوا به، لما رأوه من شدة مرضه، وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم: "قد قضى؟" فهو سؤال لهم: هل خرجت روحه أو لا، ومعلوم أن سعد بن عبادَةَ تأخر موته إلى صدر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أي أنه لم يمِت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد عزم الأنصار على تنصيبه خليفة للمسلمين في سقيفة بني ساعدة، حتى أدركهم الصديق أبو بكر وعمر وطلحة، فآل الأمر إلى أبي بكر رضي الله عنه.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "ألا تسمعون؟" تنبيه لهم ليعوا ما سيقوله، ثم أخبرهم أن الله لا يعاقب الإنسان على بكائه وحزنه على من مات له، لأن الحزن والبكاء خارجان عن إرادته، ولكن يحاسب ويعذب أو يرحم على ما يصدر من لسانه، فيعذبه إن ناح أو تسخط أو قال شرًّا، أو يثيبه على صبره واحتسابه إن استرجع وترحم وقال خيرًا.

(١) رواه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه"، فاختلفوا فيه، فقيل: إنه يعذب حقيقة على بكاء أهله عليه، إن كان ذلك من سنته في حياته في النياحة على موته، أو أوصى بذلك عند موته، كما كان يفعل أهل الجاهلية^(١)، اعتقاداً منهم أن شدة البكاء والعيول دليل على عظم منزلة الميت، وهذا فقط إذا تضمن ما لا يجوز من نوح وجزع وصوت وسخط.

وقيل: المراد بالعذاب: الألم، بمعنى أن الميت يتألم لبكاء أهله عليه، ولا يقع عليه العذاب حقيقة، وقد أنكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقوع العذاب على الميت ببكاء أهله عليه، وتبعها طائفة من أهل العلم، مستأنسين بقول الله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤]، أو قوله: {لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه: ١٥]، بينما أقر جمهور العلماء وقوع العذاب على الميت بنياحة أهله إن كان هذا من سنته في حياته، أو أوصى به، فإنه يكون حينئذ من كسبه، والله أعلم.

وأما قول ابن عمر في آخر الحديث: كان عمر رضي الله عنه يضرب فيه بالعصا، ويرمي بالحجارة، ويحشي بالتراب، فمعناه: أنه كان يفعل ذلك في وجوه من ينوحون على موتاهم، ويشيعونهم بالعيول والتعديد والتسخط وشق الجيوب، وما شابه ذلك.

ويستفاد من الحديث: التحذير من النواح على الميت والطم وشق الجيوب والتسخط، مع جواز البكاء بدمع العين، والندب إلى الترحم والاسترجاع عند وقوع مصيبة الموت، وفيه أيضاً: الندب إلى عيادة المريض، وإنكار المنكر بما هو متاح، كما كان يفعل عمر رضي الله عنه مع النائحات، والله الموفق.

(١) مما جاء في ذلك: قول طرفة بن العبد في معلقته الشهير:

إذا متُّ فانعيني بما أنا أهله وشقي عليَّ الجيب، يا ابنة معبدٍ

الحديث العاشر

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَنْتَ قَرِيءٌ كَذَا وَكَذَا، فَأَذْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرِ، فُغْفِرَ لَهُ»^(١).

هذا الحديث من أقوى وأجود أحاديث الترغيب، يحكي قصة رجل من بني إسرائيل قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم أتمها مائة، حيث قتل الراهب الذي نفى أن يكون له توبة، بينما دله العالم على سبيل التوبة بالخروج من أرض السوء التي يعيش فيها، والالتحاق برفقة صالحة في بلد آخر بعيد، لكن الموت حضره أثناء سفره إلى ذلك البلد الآخر، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب أيهم يتناول روحه، فقيض الله لهم ملكاً يحسم الخلاف بينهم، بقياس المسافة إلى أي الأرضين أقرب، أرض السوء التي خرج منها، أم أرض الصلاح التي أقبل مرتحلاً إليها، فلما وجدوه أقرب إلى الأرض الطيبة تلقته ملائكة الرحمة، إيذاناً بقبول توبته وغفران ذنوبه العظيمة، وللحديث طرق كثيرة، وألفاظ متباينة.

والظاهر أن القصة وقت في بني إسرائيل بعد زمن سيدنا عيسى عليه السلام، لأن الحديث ذكر أنه أتى راهباً يستفتيه، والرهبانة ظهرت بعد المسيح عليه السلام: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} [الحديد: ٢٧].

وفي الحديث الكثير من الفوائد النافعة: منها: التأكيد على سعة رحمة الله جل

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

وعلا، وقبوله التائبين مهما اقترفوا من كبائر الذنوب والآثام، وذلك إن تحققت التوبة بشروطها، وأهمها: أن يكون ذلك في حياة الإنسان قبل معاينة الموت، ومن ثم حث المذنبين على التوبة والسعي عليه راجين عفو الله ورحمته، دون يأس أو قنوط، فإن الله تعالى {لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، وخاطب عباده المذنبين قائلاً: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣].

ومنها: فضل العالم على العابد، والتحذير من الفتوى بغير علم، فإن الراهب ضيق على الرجل واسعاً، وسد باب التوبة في وجهه، وأفتى بغير علم، بينما أشار عليه العالم بما ينفعه، وفقاً لما أوتي من العلم.

ومنها: فضل الصلبة الصالحة، واستحباب مصاحبة الطائعين ومراقبتهم، ومجانبة العصاة والفساق وعدم مخالطتهم.

وفي الحديث أيضاً: أن ملك الموت يكون معه ملائكة آخرون موكلون بقبض روح الإنسان، وهؤلاء الملائكة تختلف صفتهم باختلاف حال الميت، فالؤمنون الطائعون تتولى ملائكة الرحمة قبض أرواحهم، ورفعها إلى السماء، حيث تحفها بعنايتها، وتتلقاها بالبشرى، وتتأديها بأحب أسمائها، فترى من النعيم والسرور والحبور ما يسرها ويثبتها. وأما الكفار والفجار فتتولى ملائكة العذاب نزع أرواحهم، وتتلقاها بالشدة والوعيد، وتغلق في وجهها أبواب السماء، فتلقى في الأرض لتتال من الويل والعذاب جزاء ما كسبت في الدنيا من ظلم وكفر وعدوان، نسأل الله العافية.

وقد أثبتت هذا نصوص القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} [النازعات: ١]، قال أهل التفسير: النازعات هم "الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط"^(١)، أي: كما يحل البعير من عقاله، والله الموفق.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٨/ ٣١٢).

الحديث الحادي عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا خَرَجْتَ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَلْقَاهَا مَلَكَانِ يُصْعَدَانِهَا - قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ - وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قَبْلِ الْأَرْضِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَسَدِكَ كُنْتَ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلِقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَقُولُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ»، قَالَ: «وَأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ - قَالَ حَمَّادٌ وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وَذَكَرَ لَعْنًا - وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ: خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قَبْلِ الْأَرْضِ، قَالَ: فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِيطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ، عَلَى أَنْفِهِ، هَكَذَا^(١).

الروح من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، نعرف آثارها، ونجهل حقيقتها، لكن المعروف أنها هي نفس الإنسان المخلوقة التي بها يحيا، وقيل: هي "جسم نوراني علوي، خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم. فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك الجسم اللطيف سارياً في هذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار، من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه، بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح"^(٢).

وحماذ روي الحديث هو أبو إسماعيل حماد بن زيد الجهضمي البصري الأزرق، من الطبقة الوسطى من أتباع التابعين، ثقة ثبت فقيه، من الأعلام، وقوله: "وذكر المسك"، يعني: سمع من شيخه أن ريحها يشبه رائحة المسك، وهو من أفضل أنواع الطيب، وأن أهل السماء يستقبلونها بالبشر والثناء عليها، وقوله: "إلى آخر الأجل"

(١) رواه مسلم (٢٨٧٢)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (٣٣).

(٢) شرح الطحاوية - ط دار السلام: (١ / ٣٩٣).

يعني: إلى المكان الذي أُعِدَّ له إلى يوم القيامة، والمراد: أنها تبقى في نعيم إلى يوم الميعاد.

وأما الروح الخبيثة: فإنها تكون منتنة، وللتعبير عن ننتها رد النبي صلى الله عليها ربطة له - وهي ثوب رقيق كالشاش أو الملاء ونحوهما - على أنه تأففاً من ننتها، كأنه صلى الله عليه وسلم كوشف له من ننتها، أو فعل ذلك للإمعان في التعبير عن ننتها مقرباً الأمر إلى أذهان مستمعيه، وكذا فعل أبو هريرة رضي الله عنه مثله وهو يروي الحديث كما سمعه، وذكر أيضاً أن أهل السماء يستقبلونها باللعن، ويأمر الله بإيداعها في المكان الذي أعد لها إلى يوم القيامة، عافانا الله وإياكم.

وفي الحديث بيان أن الروح بعد خروجها من جسد الإنسان بالموت تصعد إلى السماء، وتودع في المكان المعد لها بحسب حال الإنسان من الإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، وتظل فيه إلى يوم القيامة حيث ترد إلى الإنسان بالبعث، فينهض من قبره وينطلق إلى المحشر.

وفيه أيضاً: بيان ما يلقي المؤمن الطائع من الكرامة من الله تعالى عند موته، وحضور ملائكة الرحمة عنده عند احتضاره، مبشرة بهذه البشائر العظيمة، تشريفاً له وتكريماً، وبيان ما يلقيه الكافر والفاجر من الذل والهوان عند خروج روحه، نسأل الله العافية.

الحديث الثاني عشر

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سمعت النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَعَهُمُ اللهُ فِيهِ»^(١).

صلاة الجنازة فرض كفاية على المسلمين، وهي تقوم بمهمة الشفاعة من المصلين للميت، لأن الشفاعة دعاء، وهي صلاة لا ركوع فيها ولا سجود وإنما تنهض بالقراءة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والدعاء للميت خاصة، ثم لعموم المسلمين، وكلما زاد عدد المصلين ازداد الشفعاء، وفيهم الصالحون الذين لا يرد الله عز وجل شفاعتهم.

وقد وردت بعض الأخبار الأخرى المغايرة لهذا الخبر في العدد، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شَفَعُوا فِيهِ»^(٢)، وفي بعض الأخبار المتكلم فيها: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ صُفُوفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا أُوجِبَ»^(٣).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن اختلاف العدد لا يضر، لأن العدد الكثير يشمل القليل، وتحصل الشفاعة بأقل الأمرين: من ثلاثة صفوف أو أربعين رجلًا، وقيل: يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أُخْبِرَ بقبول شفاعته مائة، فأخبر به، ثم بقبول شفاعته أربعين، ثم بثلاثة صفوف، وإن قل عددهم، فأخبر به، ولكن هذا يلزم العلم بتاريخ كل خبر منها، وقيل: إن هذه الأحاديث خرجت أجوبة لسائلين سألوا عن ذلك، فأجاب كل واحد منهم عن سؤاله هذا بما يناسبه^(٤).

(١) رواه مسلم (٩٤٨)، وأبو داود (٣١٧٠)، وأحمد (٢٥٠٩)، وابن حبان (٣٠٨٢).

(٢) رواه مسلم (٩٤٧)، والنسائي (١٩٩١)، وأحمد (١٣٨٠٤).

(٣) رواه أبو داود (٣١٦٦)، والترمذي (١٠٢٨)، وابن ماجه (١٤٩٠)، وأحمد (١٦٧٢٤).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي: (١٧ / ٧).

وقال بعض أهل العلم: حديث المائة غير مقيد، فإذا بلغ المصلون مائة شفّعهم الله فيه، أما حديث الأربعين فهو مقيد بأنهم لا يشركون بالله شيئاً، أي أنهم من أهل التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك، أو لا يعمل أصحابه ما نص الشارع على أنه فعل شرك، كتعليق التمانم، وما شابه ذلك مما يقدح في التوحيد الخالص، نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "شفّعهم الله فيه" أي: قبل دعاءهم له، فهم يسألون من الله له المغفرة والرحمة، والدعاء للميت في الجنازة من أوجب ما يكون في الصلاة، بل هو ركن من أركان الصلاة لا تصح صلاة الجنازة إلا به، إلا المسبوق^(١)، نسأل الله السداد.

قال أبو العلا المباركفوري: "وفي هذه الأحاديث: استحباب تكثير جماعة الجنازة، ويطلب بلوغهم إلى هذا العدد الذي يكون من موجبات الفوز، وقد قيّد ذلك بأمرين: الأول: أن يكونوا شافعين فيه، أي: مخلصين له الدعاء، سائلين له المغفرة، الثاني: أن يكونوا مسلمين ليس فيهم من يشرك بالله شيئاً"^(٢)، قلت: وفيها: حث المسلمين على الصلاة على الميت وتكثير المصلين، وفيها أيضاً: إثبات شفاعة المسلمين في الميت بصلاتهم عليه، وأنه ينتفع بهذه الشفاعة بفضل الله تعالى ورحمته.

(١) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين: (٤/ ٥٣٧).

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: (٤/ ٩٨).

الحديث الثالث عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ، فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا، وَإِنْ يَكُ سَيِّئًا فَشَرٌّ تَضَعُونَهَا عَنْ رِقَابِكُمْ»^(١).

الجنّازة: يراد بها هنا: النعش الذي يحمل عليه الميت، والأمر بالإسراع معلل بتفصيل، فإن الميت إما أن يكون مؤمناً صالحاً، وإما أن يكون غير ذلك، فإن كان من أهل السعادة فإنما يسرعون به إلى النعيم، وإلى روضة من رياض الجنة، وإن كان من أهل الشقاوة - نسأل الله العافية - فإنما هو شر فوق أعناقهم، فليسارعوا إلى التخلص منه.

والإسراع بالجنّازة يشمل: الإسراع في الغسل والتكفين والصلاة والحمل والدفن، ويكون الإسراع بحيث لا ينتهي إلى شدة يخاف معها حدوث مفسدة للميت، أو مشقة على حامل النعش أو المشيع، وربما يكون مقصود الحديث ألا يتباطأ بالميت عن الدفن، لأن التباطؤ ربما أدى إلى وقوع بعض المحظورات، والله تعالى أعلم.

وكذلك الأمر بالإسراع ينفي ما يعتقد بعض الناس: أن الميت هو الذي يتحكم بالنعش، ويوجهه إلى حيث شاء، سواء إلى القبر أم إلى غيره، إذ لو كان التحكم في النعش يرجع للميت لما توجه أهل الشقاوة - عافانا الله وإياكم - إلى قبورهم تحاشياً لما أعد لهم من العذاب، ولما كان للأمر بالإسراع لمن يحملون النعش معنى، ولكن هذا من الخرافات التي يعتقدها بعض الناس، والله الموفق.

(١) رواه البخاري (١٣١٥)، ومسلم (٩٤٤).

الحديث الرابع عشر

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَتَتْهُا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجِبَتْ» ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَتَتْهُا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: «وَجِبَتْ» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجِبَتْ؟ قَالَ: «هَذَا أَتَيْنْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتَيْنْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

مروا بجنزة أي: بميت يحمل إلى قبره ليدفن، وقوله: أتتوا عليها خيرًا، أي: امتدحوها بخير خصالها وأعمالها، ونقيضه: فأتتوا عليها شرًا: التثاء لا يكون إلا بالكلام الحسن، ولكنه استعمل هنا في الكلام السيئ بزم خصالها وأعمالها على سبيل المجاز، نحو قوله تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١]، نسأل الله السلامة.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الموضعين: "وجبت"، وفي بعض طرق الحديث كررها مرارًا للتأكيد، المراد بالوجوب: الثبوت، أي: ثبوت وقوع الكلام المشار إليه كالشيء الواجب، والأصل أنه لا يجب على الله شيء، بل الثواب فضله، والعقاب عدله، لا يسأل عما يفعل سبحانه، وإنما أوجب سبحانه هذا على نفسه، كقوله جل شأنه: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧]، وقوله: {كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ} [الأنعام: ١٢].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم المراد من قوله "وجبت": أن ثناءهم في الموضعين بمثابة الشهادة، فمن شهدوا له بالخير والصلاح والاستقامة وجبت له الجنة، ومن شهدوا له بالفسق وما شابه ذلك فقد وجبت له النار، فجعل صلى الله عليه وسلم شهادة أصحابه لأحد بالجنة أو النار دليلاً على وجوبها. لكن الثناء المعتبر ها هنا بالخير أو الشر إذا كان ثناؤهم مطابقاً لأفعال من أثنوا

(١) رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

عليه، فإن لم يكن كذلك فليس هو مرادًا بالحديث، وقد كان أصحابه رضوان الله عليهم أهل عدالة وصدق، فما كانوا ليشنوا على أحد بما ليس فيه، على خلاف ما وقع بعدهم، إذ سرت بدعة في الجنائز في هذه الأزمان المتأخرة أن يسأل المتولي الدفن من يقفون على القبر: ماذا تقولون في هذا الرجل؟ أو نحو هذا، فيرد القائمون بالثناء عليه ومنهم من لا يعتقد ذلك حقيقة، أو ينقم عليه، ومنهم من لا يعرفه أصلاً، والله المستعان، والحق أنها شهادة تجري عليها مطالب الشهادة المعروفة، وطلب هذه الشهادة نفسه من متولي الدفن ليس من السنة، وإنما "المعتبر في ذلك: شهادة أهل الفضل والصدق، لا الفسقة، لأنهم قد يشنون على من يكون مثلهم، ولا من بينه وبين الميت عداوة، لأن شهادة العدو لا تقبل" (١).

وأقل الشهادة في هذا الصدد أن تكون من اثنين عدلين، لقوله في حديث أبي الأسود الديلي عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "قُلْتُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» فَقُلْنَا: وَثَلَاثَةٌ، قَالَ: «وَوَثَلَاثَةٌ» فَقُلْنَا: وَاثْنَانِ، قَالَ: «وَاثْنَانِ»، ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ" (٢). قال ابن المنير: "إنما لم يسأل عمر عن الواحد استبعاداً منه أن يكتفى في مثل هذا المقام العظيم به" (٣)، والله أعلم.

وفي الحديث: إثبات شهادة المسلمين العدول لموتاهم، وأنها موجبة لما يشهدون به، وفيه: الحث على لزوم التقوى وحسن الخلق والإصلاح بين الناس لنيل شفاعتهم وشهادتهم في الجنائز، والله الوفي.

(١) فتح الباري: (٣/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٨)، والنسائي (١٩٣٤)، والترمذي (١٠٥٩)، وأحمد (١٣٩).

(٣) فتح الباري: (٣/ ٢٣٠).

الحديث الخامس عشر

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَنَازَةٍ عِنْدَ قَبْرِ وَصَاحِبِهِ يُدْفَنُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُم، وَاسْأَلُوا اللَّهَ لَهُ التَّنْبِيْثَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(١).

الاستغفار: هو طلب المغفرة ومحو السيئات وعدم المؤاخذه عليها، والتنبيث يختص بسؤال الملكين في القبر، أي الدعاء للميت بأن يثبتته الله عز وجل بالجواب الحق والقول الثابت عند سؤال الملكين منكر ونكير له في قبره، وسوف يأتي إن شاء الله الخبر عن ذلك قريباً.

واقصر الحديث على الدعاء للميت، وتفرع عنها مسألة عن حكم تلقين الميت أجوبة الأسئلة التي سوف يسأل عنها في قبره، بأن يقال بعد الفراغ من دفنه قل: ربي الله، ودينني الإسلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم رسولي الذي بعث إليّ، ونحو ذلك.. فاختلف فيه أهل العلم، وقد أخرج الطبراني فيه حديثاً عن سعيد بن عبد الله الأودي قال: شهدت أبا أمامة وهو في النزع، فقال: إذا أنا مت، فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصنع بموتانا، أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إذا مات أحد من إخوانكم، فسويتم التراب على قبره، فليقم أحدكم على رأس قبره، ثم ليقل: يا فلان بن فلانة، فإنه يسمعه ولا يجيب، ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يستوي قاعدًا، ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يقول: أرشدنا رحمك الله، ولكن لا تشعرون. فليقل: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنتك رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً...." إلى آخر الحديث^(٢). وأورده السخاوي في المقاصد، وقال: "ضعفه ابن الصلاح، ثم النووي، وابن القيم، والعراقي، وشيخنا - يعني الحافظ -

(١) رواه أبو داود (٣٢٢١)، والبزار (٤٤٥)، والحاكم (١٣٧٢) واللفظ له.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٩٧٩)، وفي الدعاء له (١٢١٤).

في تصانيفه، وآخرون، وقواه الضياء في أحكامه، ثم شيخنا مما له من الشواهد، وعزى الإمام أحمد العمل به لأهل الشام، وابن العربي لأهل المدينة وغيرهما، كقرطبة وغيرها^(١).

وقال ابن تيمية رحمه الله: "تلقينه بعد موته ليس واجباً بالإجماع، ولا كان من عمل المسلمين المشهور بينهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه، بل ذلك مأثور عن طائفة من الصحابة، كأبي أمامة، ووائل بن الأسقع. فمن الأئمة من رخص فيه كالإمام أحمد، وقد استحبه طائفة من أصحابه، وأصحاب الشافعي، ومن العلماء من يكرهه لاعتقاده أنه بدعة، فالأقوال فيه ثلاثة: الاستحباب، والكراهة، والإباحة، وهذا أعدل الأقوال، فأما المستحب الذي أمر به وحض عليه النبي صلى الله عليه وسلم فهو الدعاء للميت"^(٢).

وفي الحديث: الندب إلى الدعاء للميت، فإنه يكون في أشد الحاجة إلى دعاء إخوانه الأحياء من المسلمين، وخاصة عند الصلاة عليه ودفنه، والدعاء يكون بالاستغفار وسؤال التثبيت، وفيه إثبات سؤال الملكين والامتحان في القبر، وحياة البرزخ، نسأل الله السداد.

* * *

(١) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: ص (٢٦٥).

(٢) الفتاوى الكبرى: (٣/ ٢٥).

الحديث السادس عشر

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ» [إبراهيم: ٢٧]، قال: «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]»^(١).

القول الثابت: هو كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، وتامها أن محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وقوله جل وعلا: {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]، الراجح من كلام أهل العلم: تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وفي الآخرة بمثل الذي ثبتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم^(٢). فالآية أصل في إثبات فتنة القبر، نسأل الله السداد.

والسؤال يتم عبر الملكين منكر ونكير، وقد ورد اسمهما في بعض الأخبار الصحيحة، وسيأتي منها إن شاء الله تعالى، والأسئلة التي يسألونها للميت ثلاثة، اختصرها لفظ هذا الحديث، وسيأتي مزيد بسط لها.

لكن يترتب على هذا الأمر مسألة: هل سؤال القبر وفتنته خاص بهذه الأمة، أم هو عام على جميع الأمم؟ ذهب الحكيم الترمذي إلى أن سؤال القبر خاص بهذه الأمة، مستشهداً بحديث زيد بن ثابت رضي الله عنه مرفوعاً: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»^(٣)، فظاهره خاص بأمتنا، قال: «أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأمة خصوصاً، وإنما ابتلوا ليميز الله الخبيث من الطيب»^(٤)، أما الأمم

(١) رواه البخاري (١٣٦٩) ومواضع، ومسلم (٢٨٧١)، واللفظ له.

(٢) تفسير الطبري "جامع البيان": (٦٠٢ / ١٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٧)، وابن أبي شيبة (١٢٠٢٨)، وابن أبي عاصم (٨٦٨).

(٤) نواذر الأصول في أحاديث الرسول: (١٦١ / ٤).

السابقة فإن الله تعالى كان يبعث إليهم الرسول بعد الرسول، فمن كذب بالرسول وأصر على الكفر كان يمهلهم حتى يريهم الآيات، ثم يدمرهم ويهلكهم.

بينما ذهب جمهور أهل العلم إلى أن سؤال القبر عام على جميع الأمم، وأن المقصود بهذه الأمة في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أمة الناس جميعاً، قال ابن القيم رحمه الله: "والظاهر والله أعلم: أن كل نبي مع أمته كذلك، وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم، وإقامة الحجة عليهم، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة، والله سبحانه وتعالى أعلم"^(١)، وقد صح في بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع يهوداً يعذبون في قبورهم، فإن كان عذاب القبر عاماً فسؤال القبر وفتنته كذلك، وإلى هذا ذهب ابن عطية وأبو عبد الله القرطبي أيضاً^(٢)، بينما اختار ابن عبد البر التوقف في المسألة، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: إثبات سؤال القبر وفتنته، واختلاف أحوال الناس في الإجابة عليه بحسب إيمانهم وطاعتهم في الدنيا، والله الموفق.

(١) الروح: ص (٨٧).

(٢) تفسير ابن عطية "المحرر الوجيز": (٣/ ٣٣٧)، والتذكرة بأحوال الموتى للقرطبي: ص (٤١٤)، والتمهيد لابن عبد البر: (٢٢/ ٢٥٣).

الحديث السابع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْعَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّعِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُتَوَرَّ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنُومَةَ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعَهُ، فَلَا يَرَالُ فِيهَا مُعَدَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»^(١).

وفي لفظ آخر له: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيَجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ، غَيْرَ فَرَحٍ، وَلَا مَشْغُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ، فَيُفَرِّجُ لَهُ فُرْجَةً قَبْلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفَرِّجُ لَهُ فُرْجَةً قَبْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا، وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، وَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَجْلِسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فِي قَبْرِهِ، فَرِحًا مَشْغُوفًا، فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا، فَقُلْتُ، فَيُفَرِّجُ لَهُ قَبْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفَرِّجُ لَهُ فُرْجَةً قَبْلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

(١) رواه الترمذي (١٠٧١)، وابن ماجه (٤٢٦٨)، وابن أبي عاصم (٨٦٤)، وابن حبان (٣١١٧).

قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا قبر الميت" بصيغة المبني لما لم يسم فاعله يعني: إذا وُضِعَ في قبره، أو إذا دُفِنَ، وقوله: "أسودان أزرقان" أي: لهما هيئة مخيفة: سود الوجوه، زرق العيون، وإنما يبعثهما الله على هذه الصفة لما في السواد وزرقة العين من الهول والوحشة، ويكون خوفهما على الكفار أشد، ليتحيروا في الجواب، وأما المؤمنون فلهم في ذلك ابتلاء بحسب درجاتهم، فيثبتهم الله جزاء لخوفهم منه في الدنيا.

وقوله: "ثم كنومة العروس" أي: ثم نومة هنيئة كما ينام العروس - وهذا يطلق على المذكر والمؤنث - في الدنيا في ترف ودعة وتنعم، حتى يأتيه غداة ليلة زفافه من هو أحب وأعطف إليه فيوقظه على الرفق واللفظ، وهذا حال المؤمن في قبره. وقوله: "التنمي" أي: انضمي واجتمعي، يقال هذا للأضلاع، "فتختلف أضلاعه" أي: تشتبك معًا من شدة التئامها عليه وشدة الضغطة، وتجاوز جنبه من كل جنب إلى جنب آخر، نسأل الله العافية.

فالحديث يثبت أن الميت يسأل في قبره، وأن من يقوم بالامتحان ملكان اسمهما: منكر ونكير، وهما ملكان لها هيئة مفزعة، لكن الفرع يقع على المسيء في الدنيا كالكافر والمنافق ونحوهما، أما أهل الإيمان فمنهم من يفرع منهما بعض الفرع، وقد يأمن البعض الآخر ممن كان يخاف ربه في الدنيا ويتقيه حق تقاته، والله المستعان، والسؤال يكون عن التصديق بنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمن كان مصدقًا به وبما جاء به في الدنيا يثبتته الله تعالى بالقول الثابت في قبره، ومن كان غير ذلك تردد وتلعثم وتوقف في الجواب، نسأل الله الثبات والسداد.

وفيه أن المؤمن يعرض له مقعدًا إلى النار أولاً، قبل أن يرى مقعده إلى الجنة، ليعرف نعمة الله عليه، والفاجر نقيض ذلك على سبيل الإمعان في التكيل به، ويقرر الحديث أيضًا: أن المؤمن يفسح له في قبره، وينام هانئًا حتى تقوم الساعة، بينما الكافر أو الفاجر يضيق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه، ويظلم عليه في قبره، ويرى مقعده من النار، نسأل الله السلامة والعافية. وفي الحديث: إثبات سؤال

القبر وفتنته، وصفة الملكين واسميتهما، واختلاف حال المؤمن والفاجر في البرزخ،
والله المستعان.

الحديث الثامن عشر

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

المراد بالغداة والعشي: وقتها في الدنيا، فإن البرزخ ليس فيه صباح ولا مساء، والمقصود أن الميت إن كان من أهل الجنة عُرِضَ عليه مقعده إلى الجنة، فتكون بشارة له متواصلة له حتى يبعث، وإن كان من أهل النار عرض عليه مقعده إلى النار، من باب التنكيل به حتى يبعث، وهذا كقوله جل وعلا: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦].

واختلفوا هل هذا العرض على الأجساد أم الأرواح، والظاهر أن العرض يكون على كليهما معاً، وليس هذا بممتنع على الله عز وجل، حتى لو أكلته السباع والحيتان، أو أحرق وصار رماداً، وقد يستثنى من ذلك الأنبياء وبعض أصناف المؤمنين كالشهداء ونحوهم، فإن الله جعل أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة كيفما تشاء.

واختلفوا كذلك في حق المسلم الذي أسرف على نفسه في الذنوب والمعاصي، فذهب بعض أهل العلم إلى أن المسلم العاصي يرى مقعده من الجنة أيضاً، لأن مصيره إليها وإن عُدِّبَ قبل ذلك على ذنوبه، إلا إن كانت ذنوبه تصل إلى حد الكفر أو الشرك بالله عز وجل، وذلك لأن سؤال القبر وفتنته متعلق بالإيمان والكفر لا بالحسنات والسيئات، كما أن حسنات المسلم وسيئاته التي دفنت معه وقت السؤال لن تقف عند حدّها ذاك، فالحسنات قد تزيد بما خلفه وراءه من صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له، والسيئات قد تزداد بما تركه وراءه من سنّة سيئة

(١) رواه البخاري (١٣٧٩) وموضع، ومسلم (٢٨٦٦).

وسيئات جارية، فلا مجال لأن يحاسب على حسناته وسيئاته في البرزخ وكلاهما قابل للزيادة حتى قيام الساعة، وإلى هذا ذهب العراقي في طرح التثريب، قال: "الذي يظهر أن المعروض عليه مقعده من الجنة، وأما النار فليس له بها مقعد مستقر، وإنما يدخلها لعارض لينقى ويظهر ويمحص، ثم يدخل مقعده من الجنة نقيًا مخلصًا"^(١).

واعترض بعضهم على هذا، قالوا: إن كانت ذنوبه كثيرة وكبيرة يعذب في قبره بها، كما ثبت في حديث القبرين اللذين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهما يعذبان: أحدهما لا يستتر من بوله، والآخر يمشي بالنميمة، ونصت بعض الأخبار على تعذيب بعض المؤمنين في البرزخ بذنوبهم: كالزناة، وآكلي الربا، وغيرهم، حتى إذا استوفى جزاءه عرض له مقعده من الجنة.

وقال آخرون: المسلم العاصي يعرض عليه المقعدان معًا، أحدهما في الجنة باعتبار المآل، والثاني في النار باعتبار الحال، وإليه جنح أبو عبد الله القرطبي في التذكرة، وأبو العباس القرطبي في المفهم، والحافظ في الفتح، والله تعالى أعلم. وفي الحديث: إثبات سؤال القبر وفتنته، وكذا إثبات عذابه ونعيمه، واختلاف حال المؤمن والكافر في البرزخ، نسأل الله السداد.

(١) طرح التثريب في شرح التريب: (٣/ ٣٠٥).

الحديث التاسع عشر

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيَقْعَدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمَحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبَدَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا - قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرَ لَنَا: أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ - قَالَ: وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»^(١).

قوله: "لا دريت ولا تليت" يعني: لا علمت ما هو الحق والصواب بالتحقيق والتسديد، ولا تبعت الحق بالمتابعة والتقليد، وقيل: تليت أصلها تلوت وانقلبت الواو إلى ياء، بمعنى: لا قرأت، أي: ما علمت بالنظر والاستدلال العقلي أنه رسول، وما قرأت كتاب الله لتعلمه منه بالدليل النقلي^(٢)، وقيل: هو دعاء عليه وتوبيخ له، والله أعلم.

وهذا الخبر كحديث ابن عمر رضي الله عنهما السالف ذكره، وفيه زيادات حسنة، منها: أن سؤال القبر يبدأ بمجرد الفراغ من الدفن وانصراف المشيعين عنه، وأن الميت ترد إليه روحه في تلك الساعة فيسمع قرع نعال المشيعين لدى انصرافهم عن قبره، وهذا كما صح عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال في وصيته: "إِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشْنُوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُتَحَرَّ جَزُورٌ وَيُقَسَّمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أَرَا جِعَ بِهِ رُسُلَ رَبِّي"^(٣).

(١) رواه البخاري (١٣٧٤) وموضع، ومسلم (٢٨٧٠).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (١/ ٢٠٥).

(٣) رواه مسلم (١٢١)، وأحمد (١٧٧٨٠).

واختلفوا في مسألة سماع الأموات فيما بعد ذلك، فمن العلماء من نفى السمع عنهم مطلقاً إلا في مثل هذا الموطن، وهو ما ذهبت إليه أم المؤمنين عائشة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، وهو قول ابن عابدين، وابن الهمام، وابن نُجَيْم وغيرهم من الأحناف، والمازري والباقي والقاضي عياض من المالكية، والقاضي أبي يعلى من الحنابلة.

ومن أهل العلم من مال إلى تأييد القول بسماع الموتى، كالطبري وابن قتيبة وابن تيمية وابن القيم وابن كثير، حيث انتصر لسماع الموتى في تفسير سورة الروم، والحافظ ابن رجب في كتابه: أهوال القبور، وغيرهم، ولهم في ذلك بعض الاستدلالات المعتبرة.

والقول الوسط في ذلك ما قاله ابن تيمية رحمه الله بعد أن سابق بعض الأدلة في المسألة: "فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي، ولا يجب أن يكون السمع له دائماً، بل قد يسمع في حال دون حال، كما قد يعرض للحي فإنه قد يسمع أحياناً خطاب من يخاطبه، وقد لا يسمع لعارض يعرض له، وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء، ولا هو السمع المنفي بقوله: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [النمل: ٨٠]، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال"^(١)، والله تعالى أعلم.

وقتادة بن دعامة السدوسي البصري راوي الحديث، من الطبقة التي تلي الوسطى من التابعين، روى له الجماعة، وهو ثقة ثبت حافظ، رحمه الله تعالى.

وفي الحديث: إثبات سؤال القبر وفتنته، واختلاف حال كل إنسان في البرزخ بحسب إيمانه، وإثبات عذاب القبر لمستحقه، أسأل الله العفو والعافية لي ولكم.

(١) مجموع الفتاوى: (٢٤ / ٣٦٤).

الحديث العشرون

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَعَرَّزَ فِي كُلِّ قَبْرِ وَاحِدَةٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْيَسَا»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "وما يعذبان في كبير" يعني: أنهما يعذبان بأسباب قد لا ترونها كبيرة في اعتقادكم واعتقاد من تعاطاها، وتستهيئون بها، لكنها كبيرة في حقيقتها وإن كنتم لا تدركون ذلك، وذلك كقول الله تعالى: {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥]، قال الحافظ: "وقيل: ليس بكبير بمجردة، وإنما صار كبيراً بالمواظبة عليه، ويرشد إلى ذلك السياق، فإنه وصف كلا منهما بما يدل على تجدد ذلك منه واستمراره عليه، للإتيان بصيغة المضارعة بعد حرف كان، والله أعلم"^(٢).

وقوله: "لا يستتر من البول"، وفي بعض طرقة: "لا يستبرئ"، وفي بعضها: "لا يستنزه من بوله"، يعني: أنه كان في حياته لا يستر جسده ولا ثيابه من مماسة البول، أي: يكشف عورته أثناء قضاء حاجته، ولا يبالي بالبول إذا أصاب جسده وثيابه، والبول نجس باتفاق، والآخر كان يمشي بالنميمة بين الناس، فينقل كلام هذا إلى ذاك، والعكس، بقصد الإضرار وإيقاع الخلاف والوقية بين الناس.

والجريد: هو فروع النخل، وقوله: "لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا"، اختلف في المقصود به، فقيل: إنه خص الجريد بذلك لأنه بطيء الجفاف، فهو لا يزال يسبح حتى يجف، والمقبوران سينتفعان ببركة تسبيحه في تخفيف عذابهما، وقيل: هو محمول على أنه دعا لهما بالتخفيف مدة بقاء النداة، لا أن في الجريد معنى يخصه، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٢١٨) وموضع، ومسلم (٢٩٢).

(٢) فتح الباري: (١/٣١٨).

واختلفوا كذلك في حال هذين المقبورين: هل كانا كافرين أم مسلمين؟ والظاهر أنهما كانا مسلمين، لأنه جاء في بعض طرق الحديث: أنه صلى الله عليه وسلم مرّ بقبرين جديدين، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم نُهي عن الاستغفار للمشركين: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، فالمنع من التشفع لهم أولى، والله أعلم.

واختلفوا كذلك في حكم وضع الجريد وغيره من النباتات على القبور، فأجازه الجمهور استنادًا لهذا الحديث، بينما قال بعضهم بالمنع بحجة أن هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ببركة يده الشريفة، ولا يتأتى هذا لغيره، وقد ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يفعلون ذلك، كأبي هريرة رضي الله عنه، وبريدة، وأبي العالية، وغيرهم، فالله تعالى أعلم.

ويستفاد من الحديث: إثبات عذاب القبر، وأنه حق يجب الإيمان والتسليم به، والتحذير من بعض الأعمال التي قد توجب العذاب في القبر، مثل النسيئة، ويلحق بها كل ما يفضي إلى التنازع والفساد بين الناس، وعدم الاحتراز من البول، ويلتحق به غيره من النجاسات في البدن والثوب، نسأل الله السداد.

الحديث الحادي والعشرون

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ».

قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»، قَالَ: «فَيَصْنَعُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَغْنِي بِهَا، عَلَى مَلَاٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشْيِعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلَيَّيْنِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكَ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبَسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا، وَطَبِيبُهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي

كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهَ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْنُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تَلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِفَّةٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَفْجَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يَفْتَحُ لَهُ».

ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «اكَتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا»، ثُمَّ قَرَأَ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١]. قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنَ حَرِّهَا، وَسُمُومِهَا، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسْؤُوكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهَ يَجِيءُ بِالْشَرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثِ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ»^(١).

(١) رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٣٤) واللفظ له، وابن أبي شيبة (١٢٠٥٩)، والحاكم (١٠٧)، واللالكائي (٢١٤٠)، وغيرهم.

وهذا حديث جامع، ينظم أحوال خروج الروح، مع سؤال القبر وفتنته، وحال المقبور بعد السؤال، كل ذلك في سياق واحد، نسأل الله التوفيق والسداد.

في البدء يبيّن الحديث حال المؤمن عند خروج روحه، حيث تنزل عليه ملائكة الرحمة، بيض الوجوه، كناية عن الحسن والبشر، ويكون معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، والحنوط ما يطيب به الميت، فتبشر الميت برضوان الله تعالى وجنته، وهذا كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠]، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام عند رأسه، فينادي الروح فتخرج "تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء" أي: تخرج بسهولة ويسر، من غير مشقة ولا عذاب، كما تسيل قطرة الماء من مخرج القربة التي يُشرب منها، فتأخذها ملائكة الرحمة فيجعلونها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، ويصعدون بها إلى السماء، فيستقبلها أهل السموات بالبشر والترحاب، وينادونها بأحسن أسمائها في الدنيا إمعاناً في البشر والترحاب، حتى يبلغوا بها السماء السابعة، فيأمر بها الله تعالى أن تكتب في عليين، وهو سجل الأبرار الذي تدون فيه أسماؤهم وأعمالهم، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

ثم تعاد الروح مرة أخرى إلى الميت حين يدفن، ليبدأ امتحان القبر المكوّن من ثلاثة أسئلة: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيجيب المؤمن عن كل هذا بالجواب الحق، الذي علمه من الوحي المنزل فأمن به وصدق، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من نسيمها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره، ويتجسد له عمله الصالح في صورة رجل حسن الهيئة، جميل الطلعة، فيبشره بالنعيم الذي ينتظره في الآخرة، فيتمنى أن تقوم الساعة الآن حتى يدخلها وينال من نعيمها وثمرها وشرابها وظلها.

أما الكافر أو الفاجر الذي بلغ بفجوره مبلغ الكفار، فإنه تأتيه ملائكة العذاب، سود الوجوه بهيئة مرعبة، ومعهم أكفان من نار، فيبشرونه بسخط الله وعذابه، ويأتي

ملك الموت ليبشره كذلك، وينتزع روحه انتزاعاً كما ينتزع السفود، وهو حديدة لها كلاليب، من الصوف المبلول، أي ينتزعها بشدة ومشقة يتألم منها، فتخرج الروح ولها رائحة نتنة كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فتأخذها الملائكة في المسوح التي معهم، وتصعد بها إلى السموات، فيستقبلها أهل السماء بالنفور والتأفف، وينادونها بأشنع أسمائها التي كان ينادى بها في الدنيا، ولا تفتح لها أبواب السماء، وتطرح إلى الأرض طرْحاً، ومصادق ذلك قوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١]. وتعاد روحه إلى جسده حين يقبر، ليبدأ امتحان القبر، وتوجه له الأسئلة نفسها، غير أنه لا يعرف بم يجيب عنها، فينادي مناد من السماء أن كذب، ويُفَرَّش له من النار، ويُفَتَّح له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ثم يتجسد له عمله الطالح في صورة رجل قبيح الوجه والهيئة، منتن الريح، فيبشره بما أعدَّ له من العذاب في الآخرة، فيتمنى لو أن الساعة لم تقم، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي الحديث: بيان حال المؤمن والكافر عند خروج الروح، وإثبات سؤال القبر ونعيمه وعذابه، وأن كل إنسان سيُجْزَى في البرزخ بحسب إيمانه وعمله، نسأل الله السداد.

الحديث الثاني والعشرون

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟» قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَسَأَلْنَا يَوْمًا فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ ... إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَنِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفَهْرٍ - أَوْ صَخْرَةٍ - فَيَشْدُخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَذَهَّدَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَنِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقَبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسْطِ النَّهْرِ وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصَبِيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَر قط أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شَبُوحٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصَبِيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شَبُوحٌ وَشَبَابٌ. قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبَرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالَا: نَعَمْ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذِبَةِ، فَتَحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيَصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدُخُ رَأْسَهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ

بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّفْبِ فَهُمْ الزُّنَادُ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهْرِ آكِلُوا الرِّبَا، وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصَّيَّانُ حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ وَالَّذِي يُوقَدُ النَّارَ مَالِكُ خَازِنِ النَّارِ، وَالِدَارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارَ عَامَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جَبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمْرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»^(١).

هذا الحديث يسمى حديث المنام، والبعض يخلط بينه وبين أحاديث الإسراء، وإنما هو رؤيا منامية رآها النبي صلى الله عليه وسلم تكشف عن أحوال بعض الأرواح في البرزخ، ورؤيا الأنبياء وحي من الله عز وجل، ألا ترى أن إبراهيم الخليل همّ بذبح ابنه بناء على رؤيا؟ وكذلك توجه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للاعتماد بمكة عام الحديبية بناء على رؤيا؟

وقد بدأ الحديث بسؤال النبي صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم الليلة رؤيا؟"، وذلك على سبيل التلطّف والتندر مع أصحابه، فلما لم يبتدر أحد منهم لقص رؤيا رآها، شرع صلى الله عليه وسلم يقص عليهم رؤياه التي رآها هو، وقوله: "إلى الأرض المقدسة" كذا بالتعريف، وفي رواية أخرى: "إلى أرض مقدسة" بالتكثير، وفي مسند أحمد: "فَأُخْرِجَانِي إِلَى أَرْضٍ قُضَاءٍ، أَوْ أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ"، دل هذا كله على أنها ليست بأرض معروفة بعالمنا.

وقوله: "كلوب من حديد" يعني: حديدة معطوفة الرأس يعلق عليها اللحم، كما نرى في زماننا هذا، والشدق: جانب الفم، والمقصود: أنه رأى رجلاً يشق جانب فمه بكلوب الحديد، ثم يفعل بشدقه الآخر الشيء ذاته، فيعود ليجد أن شدقه قد التأم، فيعاود شقه بالكلوب، وهكذا على الدوام، وفي بعض طرق الحديث: "يَأْتِي أَحَدَ شَقِّي

(١) رواه البخاري (١٣٨٦)، ومسلم (٢٢٧٥) مختصراً، ورواه مطولاً أيضاً أحمد (٢٠٠٩٤)، وابن خزيمة (٩٤٢)، وابن حبان (٩٥٥)، والطبراني (٦٩٨٤)، وغيرهم.

وَجْهَهُ فَيُشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ"، ويأتي تفسير هذا في آخر الحديث: بأنه الرجل الكذاب، الذي ينشر الأكاذيب بين الناس ليفسد عليهم دينهم أو دنياهم، فتحمل تلك الأكاذيب عنه في الآفاق، فهو يصنع به هذا إلى يوم القيامة، وقوله: "إلى يوم القيامة" يدل على أن هذا يقع له في البرزخ، وفي بعض طرق الحديث: "قَالَ: هَذَا رَجُلٌ كَذَّابٌ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".

ثم رأى رجلاً مستلقياً على قفاه، ورجل قائم بيده حجر كبير أو ملء الكف، فيشدخ به رأسه، أي: يشقها بالحجر، ثم يتدهده - أي: يتدحرج الحجر بعيداً - فإذا ذهب الرجل الآخر لجليه عاد رأس الأول كما كان، فيصنع به مثل ذلك، ويأتي تفسير ذلك في آخر الحديث: أنه الرجل الذي آتاه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل بما فيه بالنهار، فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة، وفي بعض طرق الحديث: "يَأْخُذُ الْقُرْآنَ، فَيَرْفِضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ".

ثم رأى بعد ذلك ثقباً مثل الثُّور، أي: الفرن، وكان أعلاه ضيقاً، وأسفله واسعاً، يتوقد تحته ناراً، وكان فيه أناس عراة، فإذا اقترب منهم لهب النار ارتفعوا إلى أعلى الثُّور حتى كاد أن يخرجوا، فإذا سكن لهيبها ولم يطفأ حرها رجعوا فيها، وجاء تفسير ذلك في آخر الحديث: أنهم الزناة، وهذا عقابهم حتى تقوم الساعة.

ثم رأى بعد ذلك نهراً من الدم، وفيه رجل يسبح، وكلما حاول الخروج من النهر ابتدره رجل آخر يقف على حافة النهر وبين يديه حجارة، فيقفزه بها في فمه ليمنعه من الخروج، فيعود الرجل إلى النهر، ثم يحاول مجدداً الخروج، وكل مرة يقفزه الرجل الذي على الحافة بحجر في فمه حتى يعيده إلى النهر، وجاء تفسير ذلك في آخر الحديث: أنه آكل الربا، يفعل فيه ذلك حتى تقوم الساعة.

ثم رأى بعد ذلك روضة خضراء، فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها وعند جذرها يجلس شيخ وحوله صبيان، وفي بعض طرق الحديث: "فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ، لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوُّلاً"، وإذا رجل قريب من الشجرة أمامه وبين يديه نار يوقدها، فصعد الملكان بالنبى صلى الله عليه وسلم في الشجرة التي هي في الروضة الخضراء،

وأدخله دارًا جميلة لم ير قط أحسن منها، وكان فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجه الملكان من الدار، فصعدا به الشجرة فأدخله دارًا هي أحسن وأفضل من الأولى، فيها أيضا شيوخ وشباب، وجاء تفسير ذلك في آخر الحديث: أن الشيخ الجالس هو إبراهيم عليه السلام، والصبيان الذين من حوله هم أولاد المسلمين الذين ماتوا صغارًا، قبل سن البلوغ والتكليف، وجاء في بعض طرق الحديث: "فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ»، والمراد: أولاد المشركين الذين يمتحنون يوم القيامة فيفلحون على ما سيأتي إن شاء الله تعالى، والذي يوقد النار: هو مالك خازن النار، وفي بعض طرق الحديث: «فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرَاةَ، كَأَكْرَهٍ مَا أَنْتَ رَاءِ رَجُلًا مَرَاةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحْشُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا»، أعادنا الله وإياكم.

والدار الأولى التي دخلها هي دار عامة المؤمنين، وأما الدار الأخرى التي هي أعلى وأجمل من الأولى فدار الشهداء، وفي بعض طرق الحديث: «فَبَيْنَمَا بَصْرِي صُعْدًا فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ، قَالَ لِي: هَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا ذَرَانِي فَلَا دُخْلُهُ، قَالَ: قَالَ لِي: أَمَا الْآنَ فَلَا، وَأَنْتَ دَاخِلُهُ». والربابة البيضاء: هي السحابة البيضاء الصافية المنفردة المرتفعة في السماء. والرجلان اللذان طافا بالنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة المنامية هما: جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وقد جاء في بعض طرق الحديث زيادات أخرى، منها: "فَأَنْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبْنٍ ذَهَبٍ، وَلَبْنٍ فِضَّةٍ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرَ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءِ، وَشَطْرَ كَأَفْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءِ، قَالَ لَهُمْ: أَذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَ لِي: هَذِهِ جَنَّةٌ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالَ: أَمَا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرَ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وَشَطْرَ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ" (١).

(١) رواه البخاري (٤٦٧٤).

وفي الحديث كثير من الفوائد: منها، التحذير من الكذب وهجر القرآن الكريم والصلوات المكتوبة، والتحذير كذلك من الزنا وأكل الربا، وما شاكلهما من الأعمال التي اقترنت بالوعيد.

ومنها: أن أولاد المسلمين الذي يموتون قبل البلوغ في الجنة، في كفالة سيدنا إبراهيم الخليل، وقد جاء في حديث آخر أن «أَوْلَادُ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَبَلٍ فِي الْجَنَّةِ، يَكْفُلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ، حَتَّى يَرُدَّهُمْ إِلَى آبَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وفي حديث آخر: أنهم «يَلْعَبُونَ بَيْنَ نَهْرَيْنِ»^(٢).

وفي الحديث: بيان أحوال بعض أصناف الناس في حياة البرزخ، بحسب أعمالهم وما أسلفوا في دنياهم، قال ابن أبي العز الحنفي: "الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت، فمنها: أرواح في أعلى عليين، في الملاء الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون في منازلهم، ومنها أرواح في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه..."، وقال: "ومن الأرواح من يكون محبوباً على باب الجنة، كما

في الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رَأَيْتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوساً عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ»^(٣)، ومنهم من يكون محبوباً في قبره، ومنهم من يكون في الأرض، ومنها أرواح في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلثم الحجارة، كل ذلك تشهد له السنة، والله أعلم»^(٤).

أسأل الله العلي العظيم، الرحمن الرحيم، أن يحسن عاقبتنا، وأن يؤمّنّا ما نخاف

(١) رواه أحمد (٨٣٢٤)، وابن أبي شيبة (١٢٠٥٢)، والحاكم (١٤١٨) واللفظ له، والبيهقي في البعث والنشور (٢١٠).

(٢) رواه ابن خزيمة (١٩٨٦)، وابن حبان (٧٤٩١)، والطبراني (٧٦٦٦)، والحاكم (٢٨٣٧).

(٣) رواه النسائي (٩٣٢)، وأبو داود (٣٣٤١)، وأحمد (٢٠١٢٤).

(٤) شرح الطحاوية "ط. دار السلام": ص (٤٠٢، ٤٠٣).

يوم نلقاه، ويوم نعرض عليه، ويصرف عنا الحزن والخزي، وأن يدخلنا في ظل
رحمته، ويحشرنا في زمرة أوليائه وأصفيائه، وهو العفو الغفور، وسلام على
المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

بعض ما جاء من الأخبار في وصف القيامة

أما بعد:

فإن الإيمان باليوم الآخر ركن عظيم من أركان الإيمان، تتكرر الإشارة إليه في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، لما له من أثر بالغ في تقويم السلوك، وإصلاح النفوس، واستحضار حقيقة المصير المحتوم، وإن من أعظم ما يعين المسلم على ترسيخ هذا الإيمان، وتأمل حقائق الآخرة، الوقوف على الأحاديث النبوية التي وصفت مشاهد القيامة وأحوالها، وما يتبعها من الحساب والميزان والصراط والشفاعة، وما أعدّه الله تعالى لأهل الجنة من نعيم، ولأهل النار من عذاب.

وهذا القسم يجمع طائفة مختارة من الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة التي تتناول وصف يوم القيامة وأحداثه العظيمة، ولا يهدف هذا العمل إلى مجرد جمع النصوص، وإنما يسعى إلى إحياء معاني الاستعداد للآخرة في النفوس، وتعميق الشعور برقابة الله تعالى، وتعزيز الرجاء في رحمته والخوف من عقابه، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

أسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الاستعداد ليوم المعاد، وأن يجعلنا ممن يأمنون الفرع الأكبر، ويفوزون برضوانه وجناته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحديث الأول

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض" أي: يجمعها كلها بما فيها من يابسة وبحار وأنهار وأشجار قبضة واحدة، وقوله: "يطوي السماء" أي: يذهبها ويخفيها، قال ابن منظور: "الطي: نقيض النشر"^(٢). وأما قوله جل وعلا: "أنا الملك، أين ملوك الأرض؟" فهذا مصداق قوله جل وعلا: {لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦]، ومعناه: لمن السلطان اليوم؟ وذلك يوم القيامة، فيحيب نفسه فيقول: (الله الواحد) الذي لا مثل له ولا شبيهه، (القهار) لكل شيء سواه بقدرته، الغالب بعزته"^(٣).

وفي الحديث إثبات صفتي القبضة واليمين لله رب العالمين على الوجه الذي يليق بكماله وجلاله، كدأب السلف رضوان الله عليهم في إثبات الصفات الإلهية بلا كيف، قال البغوي رحمه الله: "هذه ونظائرها صفات لله عز وجل، ورد بها السمع، يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها معرضاً فيها عن التأويل، مجتنباً عن التشبيه، معتقداً أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وعلى هذا مضى سلف الأمة وعلماء السنة، تلقوها جميعاً بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكّلوا العلم فيها إلى الله عز وجل"^(٤)، وقال ابن كثير رحمه الله: "المسلّك الأسلم في ذلك طريقة السلف:

(١) رواه البخاري (٤٨١٢) وموضع، ومسلم (٧٥٨).

(٢) لسان العرب: (١٥ / ١٨).

(٣) تفسير الطبري "جامع البيان": (٢١ / ٣٦٦).

(٤) شرح السنة للبغوي: (١ / ١٧٠، ١٧١).

إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل^(١).

وفي الحديث: إثبات قدرة الله تعالى التي من مظاهرها أن الأرض بما فيها من جبال وأشجار وأنهار وبحار يوم القيامة في قبضته، وأن السموات السبع كلها مطويات بيمينه، تنزه وتقدس وتعالى عما يقوله ويعتقده المشركون، وفيه أيضاً: إثبات اليوم الآخر وما فيه من أهوال، نسأل الله السلامة، ونعوذ به من الخذلان.

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥ / ٢٧٣).

الحديث الثاني

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وفي بعض طرقه: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُكَوَّرَانِ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

مكوران: أي: مطويان، قد ذهب ضوءهما، وقيل: يلفان ويجمعان، ثم يلقيان في النار، وقال بعض أهل العلم: ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك، ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا، ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلاً، وقال آخرون: لا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما، فإن الله تعالى في النار ملائكة وحجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذاباً، وآلة من آلات العذاب وما شاء الله من ذلك، فلا تكون هي معذبة^(٢)، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وأن الشمس والقمر مخلوقان لله رب العالمين يفعل بهما كيف يشاء، وبطلان عقائد المشركين، والله المستعان.

(١) رواه البخاري (٣٢٠٠)، وابن بطة (٧٠).

(٢) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني: (٦ / ٣٠٠).

الحديث الثالث

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أَبَيْتُ، «وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا عَجَبَ دَنْبِهِ، فِيهِ يَرْكَبُ الْخَلْقُ»^(١).

النفخ في الصور من مسائل اليوم الآخر التي يجب على كل مسلم الإيمان بها جازمًا غير مرتاب، والصور: قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، وقد وكل الله تعالى به ملكًا ينفخ فيه وهو إسرافيل عليه السلام، وهذا يحدث على نفختين: نفخة الصعق التي تموت الخلائق عندها، ونفخة البعث التي يحيون عندها، ومصدق ذلك في كتاب الله جل وعلا: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨].

وقوله: "أبیت" هذا من كلام أبي هريرة رضي الله عنه حين سئل عن تحديد الأربعين، يعني: أمتنع من تعيين ذلك بالأيام والسنين والشهور، لأن النبي صلى الله عليه لم يعين ذلك، وقوله: "فينبتون"، أي: الأموات، "كما ينبت البقل"، أي: الزرع.

وأخبر صلى الله عليه وسلم أنه بعد موت الإنسان تبلى عظامه كلها وتكون ترابًا، فلا يبقى من عظام الإنسان شيء إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب، وهو العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو أول ما يخلق من آدمي، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه يوم القيامة، قال أهل العلم: "هذا عام يخص منه الأنبياء، لأن الأرض لا تأكل أجسادهم"^(٢)، ويلحق بهم كذلك بعض الفئات من المؤمنين كالشهداء ونحوهم، والله تعالى أعلم.

(١) رواه البخاري (٤٨١٤) - (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) "فتح الباري: (٨ / ٥٥٣).

ويستفاد من هذه الحديث: مشروعية السؤال عما يشكل على المتلقي فهمه،
والتورع عن الإجابة عما لا علم لدى المتحدث به، وفيه أيضًا: إثبات قدرة الله تعالى
على النشأة الأخرى، وبعث من في القبور يوم تقوم الساعة: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٠٤]، فسبحان الخلاق العظيم.

الحديث الرابع

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بَيَّنَّمَا رَجُلٌ وَأَقِفٌ بِعَرَفَةَ، إِذْ وَقَعَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، فَوَقَصَتْهُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلَا تُحْنَطُوهُ، وَلَا تُخَمَّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا»^(١).

قوله: واقف بعرفة، يعني أنه كان يؤدي فريضة الحج، وقوله: فوقصته - وفي رواية: فأوقصته، وفي لفظ آخر: فأقصعته، أو فأقصعته - وكل ذلك بمعنى: كسرت عنقه، أي أنه سقط من فوق دابته فمات، فنسب الفعل إلى الدابة مجازًا، أو يحتمل أنه سقط من فوقها فوطئت بحافرها على عنقه فقضت عليه حقيقة.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يغسلوه بماء وسدر، وهو ورق شجر النبق، له رائحة طيبة، ولكن لا يستخدم كطيب، وأن يكفنه في ثوبين، ولا يطيبوه كما يطيب الماء الذي يغسل به الموتى، لأنه قد مات متلبسًا بالحج، والحاج لا يتطيب، ونهاهم كذلك عن أن يخمروا رأسه، أي: عن تغطيته، لأنه محرم، وعلل ذلك بأنه يبعث يوم القيامة يلبي كما كان يفعل قبيل موته، أي أنه سوف يبعث على الصورة التي مات عليها.

قال النووي رحمه الله: "في هذه الروايات دلالة بينة لمذهب الشافعي وأحمد وإسحاق وموافقيهم: في أن المحرم إذا مات لا يجوز أن يلبس المخيط، ولا تخمر رأسه، ولا يمس طيبًا، وقال مالك والأوزاعي وأبو حنيفة وغيرهم: يُفعل به ما يفعل بالحي، وهذا الحديث راد لقولهم"^(٢).

ويؤخذ من الحديث: إثبات المعاد، وأن بعض الناس يحشرون على هيئة مخصوصة، والمحرم إذا مات فإنه يبقى في حقه حكم الإحرام، فلا يحنط، ولا يغطي رأسه، ولا يكفن في ثلاثة أثواب كغيره، وفيه: أن من مات في سبيل الله يبعث على

(١) رواه البخاري (١٢٦٥) وموضع، ومسلم (١٢٠٦).

(٢) شرح صحيح مسلم: (٨ / ١٢٧).

الهيئة التي مات عليها، وهذا كما جاء في الخبر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قتلى أحد: «رَمَلُوهُمْ بِدِمَائِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ كَلِمٌ يُكَلَّمُ فِي اللَّهِ إِلَّا يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَى، لَوْنُهُ لَوْنُ الدِّمِّ، وَرِيحُهُ رِيحُ الْمُسْكِ»^(١)، قال بعض أهل العلم: "فعمم الحكم في الظاهر بناء على ظاهر السبب، فينبغي أن يعمم الحكم في كل محرم، وبين المجاهد والمحرم جامع لأن كلا منهما في سبيل الله"^(٢).

* * *

(١) رواه النسائي (٢٠٠٢)، وأحمد (٢٣٦٥٨).

(٢) انظر فتح الباري: (٣ / ١٣٧).

الحديث الخامس

عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى ابْنُ اللَّثِيئَةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسِبُهُ، قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا»، ثُمَّ حَاطَبْنَا، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي اسْتَعْمَلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِنَّا وَلَآئِي اللَّهِ، فَيَأْتِيَنِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أَهْدَيْتَ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا عَرَفَنَ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رِغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُورٌ، أَوْ شَاةٌ تَنْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»^(١).

في الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً لجمع الزكاة من بعض قبائل العرب، فلما رجع من عندهم أعطى النبي صلى الله عليه وسلم مالا على اعتبار أنه الصدقة التي جمعها، وقبض لنفسه بعض المال بزعم أنه أخذه منهم على سبيل الهدية، وليس من المال الذي كُلف بجمعه، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، وخطب في الناس ينهاهم عن مثل هذا، وأقسم بالله أنه ما من أحد يأخذ شيئا من الصدقة بغير حق، إلا أتى يوم القيامة حاملا ما أخذ وسرق منها على عنقه، فإن كان ما أخذه بعيرا من الإبل، فإنه يأتي به حاملا إياه على عنقه، ويكون له رغاء، وهو صوت البعير، وإن كانت بقرة جاء يحملها ولها خوار، وهو صوت البقر، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، أي: تصيح، واليعار: صوت الغنم.

ويؤخذ من الحديث: أن الولاية والإمارة من الأمانات التي سوف يُسأل عنها الوالي والأمير، ولا ينبغي لمن تولى أمرا أن يستغل هذا الأمر لتحقيق مصلحة خاصة له، لم يكن ليحققها إلا بتوليهِ هذا المنصب، ووجوب محاسبة الولاية وأصحاب الأعمال

(١) رواه البخاري (٦٩٧٩) ومواضع، ومسلم (١٨٣٢).

العامة على ما يكسبونه من أموال. كما يؤخذ منه: إثبات البعث، وأن من الناس من يبعث على هيئة مخصوصة، وأن من الناس من يحشر حاملاً أوزاره بأعيانها، فهو يحمل المال الحرام الذي جمعه على كتفيه حقيقة، وقد جاء في بعض طرق هذا الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَنَعَّرُ».

* * *

الحديث السادس

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمَرَ الْمُسْلِمَ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْغَفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَصْغَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَنْتَنَى اللَّهَ»، وفي رواية: «فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَغَفَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي»^(١).

المفاضلة بين الأنبياء جائزة ومقررة، لقوله جل وعلا: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة: ٢٥٣]، {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ} [الإسراء: ٥٥]، كما تقرر أيضاً أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم هو خير ولد آدم أجمعين متضمناً ذلك الأنبياء عليهم السلام، ويكون النهي في هذا الحديث محمولاً على المفاضلة التي تقضي إلى انتقاص المفضل، أو المفاضلة التي تقضي إلى الخصومة والعصبية، وقيل: إنما نهى عن تفضيله على الأنبياء تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم، وحتى لا يكون هناك نزاع في ذلك، فتكون مدخلاً للشيطان، والله أعلم.

ويؤخذ من الحديث: إثبات الصعقة التي تكون عند النفخة الأولى، كما في قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي قِيَامٍ يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨]، والصعق: هو غشي أو إغماء أو موت يلحق من سمع صوتاً شديداً أو رأى شيئاً مفرعاً، ولا يصعق من استثنى الله

(١) رواه البخاري (٢٤١١) ومواضع، ومسلم (٢٣٧٣).

سبحانه، واختلف أهل العلم في تعيين هؤلاء الذين استثنوا، فقيل: هم الشهداء، وقيل: الملائكة، وقيل غير ذلك، وبالجمله يكون الصعق في حق الأحياء وقتذاك فيموتون، ويقع الصعق للموتى أيضًا بكيفية لا يعلمها إلا الله سبحانه، قال ابن كثير رحمه الله: "وينفرد الحي القيوم الذي كان أولًا، وهو الباقي آخرا، بالديمومة والبقاء، ويقول: {لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: ١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى" (١).

وفي الحديث أيضًا إثبات البعث، ولكن ثبت في الصحيح أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أول من يبعث وتتشق عنه الأرض، كما في الحديث: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ» (٢).

وأما ترده صلى الله عليه في تعيين الأولية في هذا الحديث هل هي له أم لموسى عليه السلام فأجيب عنها بأنه "يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أنه أول من تتشق عنه الأرض، إن كان هذا اللفظ على ظاهره، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم أول شخص تتشق عنه الأرض على الإطلاق، ويجوز أن يكون معناه أنه من الزمرة الذين هم أول من تتشق عنهم الأرض، فيكون موسى عليه السلام من تلك الزمرة" (٣)، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٧ / ١١٦).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٨)، وأبو داود (٤٦٧٣)، وأحمد (١٠٩٧٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي: (١٥ / ١٣١).

الحديث السابع

عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ»^(١)، وفي رواية: "لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ".

الحشر هو حشد الناس جميعاً في موضع ما، وهو يلي البعث والنشور، والحديث يبين صفة أرض المحشر، فهي أرض بيضاء عفراء، أي: بيضاء تميل إلى الحمرة قليلاً، "قُرْصَةُ النَّقِيِّ": أي كالخبز - أو العجين - النقي الذي سلم دقيقه من الغش والنخالة، وقوله: "ليس فيها علم - أو معلم - لأحد": قال القاضي عياض: "المراد أنها ليس فيها علامة سكنى، ولا بناء، ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة"^(٢)، قالوا: وفي هذا تعريض بأن أرض الدنيا ذهبت وزالت أملاك أهل الدنيا منها.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وبيان عظم هوله، والدليل على عظمة قدرة الله جل وعلا، والإعلام ببعض جزئيات يوم القيامة، ليكون السامع على بصيرة، فيخلص نفسه من هول ذلك اليوم، والله المستعان.

(١) رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

(٢) فتح الباري: (١١ / ٣٧٥).

الحديث الثامن

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا»، ثُمَّ قَرَأَ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٠٤]، «وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّ أَنْاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَرَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [١] إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٧، ١١٨]»^(١).

هذا الحديث يبين مشهداً من مشاهد الآخرة، حيث يجمع الناس عند الخروج من القبور بعد بعثتهم وإحيائهم من موتهم حفاة بلا خف ولا نعل، وعراة بلا ثياب، وغرلاً أي: غير مختونين، كما كانوا عندما خلقوا أول مرة، وذكر صلى الله عليه وسلم أن أول من يُكسى من الأنبياء يوم القيامة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولا يلزم من تخصيصه عليه السلام بذلك أفضليته على نبينا صلى الله عليه وسلم، فقد يتميز المفضل بفضيلة دون الفاضل، والله عز وجل قد يخصص أحداً من الأنبياء أو غيرهم بشيء يتميز به عن غيره، ولا يوجب ذلك الفضل المطلق.

وقوله: "يؤخذ بهم ذات الشمال"، أي: ينتزع بعض الناس من بين جموع أمته صلى الله عليه وسلم، ويدفع بهم جهة الشمال، وهي جهة أهل الشقاء والعذاب، أعاذنا الله من ذلك، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} [١] عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ [البلد: ١٩، ٢٠]، وقال جل شأنه: {وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ} [١] فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ [١] وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ} [الواقعة: ٤١ - ٤٣]، نسأل الله السلامة والعافية.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "أناساً من أصحابي" فلا يراد به السابقون الأولون

(١) رواه البخاري (٣٣٤٩) ومواضع، ومسلم (٢٨٦٠).

من المهاجرين والأنصار، وإنما يراد به المفهوم الواسع للصحة، الذي يشمل كل من وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ولقيه ولو مرة واحدة، فقد وقعت الردة عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حين ارتد أقوام ممن بايعوه على الإسلام، وامتنع آخرون عن الزكاة، كما ادعى أناس النبوة وتبعهم خلق من أقوامهم، ثم افترت الفرق بعد ذلك فيما بينها، ووقعت الخصومات والنزاعات العقدية والحربية بين المؤمنين، وأنا لله وإنا إليه راجعون.

ويستفاد من الحديث: إثبات البعث والحشر على الصفة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، وإخباره بأمور من الغيب تحققت بعد، وهي من دلائل نبوته وصدقه عليه الصلاة والسلام، وفيه فضائل بعض الأنبياء مثل إبراهيم وعيسى عليهما السلام.

الحديث التاسع

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ عَذْرَةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ»^(١).

الغادر: هو الشخص الذي ينقض عهده، والغدر ها هنا بمعناه الواسع، كغدر الإمام بعهوده لرعيته التي تقلد أمرها ليصلحها ويعتني بمصالحها، وغدر الرعية بإمامها الذي عاهدته على السمع والطاعة، ثم خرجت عليه، وغدر كل ذي عهد بمن عاهدته بعد أن وثق به، وقد سأل عظيم الروم أبا سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم: هل يغدر؟ فأجاب أبو سفيان: "لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا"، فقال هرقل بعد ذلك: "وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنَّ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ"^(٢).

وأما اللواء: فالمراد به ها هنا: علامة يميز بها الغادر يوم القيامة، وقيل إن العرب قديماً كانوا يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء، ليلوموا الغادر ويذموه، فافتضى الحديث وقوع مثل ذلك للغادر يوم المحشر ليشتهر بصفته في القيامة فيذمه أهل الموقف.

وفي الحديث: إثبات البعث والحشر، وفيه ذم الغدر والتحذير منه.

(١) رواه البخاري (٣١٨٨) ومواضع، ومسلم (١٧٣٥)، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧) ومواضع، ومسلم (١٧٧٣).

الحديث العاشر

عن قتادة: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةَ رَبِّنَا^(١).

وهذا الحديث مصداق قول الله جل وعلا: {وَنُحْشِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: ٩٧].

وهذه الكيفية على حقيقتها وليست بحاجة إلى تأويل، وإلا لما تعجب الصحابة منها وسألوا عنها، قال الحافظ: "والحكمة في حشر الكافر على وجهه: أنه عوقب على عدم السجود لله في الدنيا بأن يسحب على وجهه في القيامة، إظهاراً لهوانه بحيث صار وجهه"^(٢).

وفي الحديث: إثبات البعث والحشر عامة، وعلى الكيفية الخاصة التي عينها الوحي بالنسبة للكافر، نسأل الله العافية.

(١) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

(٢) فتح الباري: (١١ / ٣٨٢).

الحديث الحادي عشر

- عن سليم بن عامر، أن المقداد بن الأسود رضي الله عنه حدثهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تُذْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخُلُقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» - قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةً الْأَرْضِ، أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ - قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَامَا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ^(١).

الميل: اسم مشترك بين مسافة في الأرض، وهي وحدة معروفة قديماً وحديثاً، والميل: بمعنى المروء الذي تكحل به العين، وقد أشكل المراد على الراوي سليم بن عامر فأقر بهذا في روايته، ويخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن اقتراب الشمس من رؤوس الخلائق في المحشر، حتى أن العرق سيغمر الناس على قدر أعمالهم في كثرة العرق وقلته، فمنهم من يكون عرقه إلى كعبيه أعلى القدم، ومنهم من يكون عرقه إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، وهو الموضع الذي يعقد عليه الإزار من الخاصرة، أو طرفا الوركين، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، أي: يصل إلى فمه، فيكون له بمنزلة اللجام من الحيوانات، نسأل الله العافية.

ففي هذا الموقف تتراكم الأهوال، حيث تدنو الشمس جداً، ومع الزحام يشتد أمر العرق على البعض ويخفف على البعض بحسب أعمالهم، وقيل: إن هذا خاص بالكافرين والعصاة، أما المؤمنون فإن الله يخفف عنهم ويكون الموقف عليهم كموقفهم في صلاتهم، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: إثبات البعث والحشر، وبيان بعض أهوال القيامة والترهيب منها، نسأل الله السداد.

(١) رواه مسلم (٢٨٦٤)، والترمذي (٢٤٢١)، وأحمد (٢٣٨١٣).

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه، ورجُلٌ قلبُه معلقٌ في المساجِدِ، ورجُلانِ تحابَّا في الله اجتمعَا عليه وتفرَّقا عليه، ورجُلٌ طلبتُه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخافُ اللهَ، ورجُلٌ تصدَّقَ، أخفى حتَّى لا تعلمَ شمالُهُ ما تُنفقُ يمينُهُ، ورجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

وهذا الحديث يخفف من وقع الحديث السابق، ففيه استثناء لأصناف من الناس يدينهم الله في ظل كرامته، ويقيهم حر ذلك اليوم، نسأل الله أن يجعلنا منهم، والمراد بالظل ها هنا: ظل العرش كما جاء مصرحاً به في بعض طرق الحديث، ومن العلماء من تأول الظل بكنف الله تعالى ورحمته، ولا منافاة بينهما، فالظل على حقيقته دال على عناية الله جل وعلا بعباده هؤلاء، وإدخالهم في كنفه ورحمته، والله الموفق. والأصناف السبعة هم:

١. الإمام العادل، أي الحاكم العادل في رعيته، الذي يحافظ على حقوقهم، ويرعى مصالحهم، ويرفق بهم ويعطي كل ذي حق حقه دون محاباة أو جور، فيقيم مصالح الدين والدنيا

٢. وشاب نشأ مجتهداً في عبادة ربه، ملتزماً بطاعته في أمره ونهيه، وخص الشاب بالذكر، لأن العبادة في الشباب أشد وأشق وأصعب، مع كثرة الدواعي للمعصية وغلبة الشهوات.

٣. ورجل معلق قلبه في المساجد، فهو شديد الحرص على المكث فيها، والتردد عليها، ملازماً للجماعة والفرائض ومنتظراً للصلاة بعد الصلاة.

٤. ورجلان أحب كل منهما الآخر في ذات الله تعالى وفي سبيل مرضاته وطاعته، لا لغرض دنيوي، واجتمعا على ذلك، واستمرا على محبتهما هذه لأجله

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ومواضع، ومسلم (١٠٣١).

٥. ورجل طلبته للفاحشة امرأة حسناء ذات حسب ونسب، ومال وجاه، ومركز مرموق، فقال: إني أخاف الله، سواء قال ذلك بلسانه زجرًا لها عن الفاحشة، أو قالها بقلبه ويصدق فعله، بأن تمنعه مخافة الله عن اقتتراف ما يغضبه، وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها، وهذه صفة الصديقين.

٦. ورجل تصدق صدقة التطوع، فبالغ في إخفاء صدقته على الناس، وسترها عن كل شيء حتى عن نفسه، فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وإنما ذكر اليمين والشمال للمبالغة في الإخفاء والإسرار بالصدقة، وهذا هو الأفضل في الصدقة والأبعد من الرياء، وإن كان يشرع الجهر بالصدقة والزكاة إن سلمت عن الرياء، وقصد بها حث الغير على الإنفاق بالاعتداء به، ولإظهار شعائر الإسلام.

٧. ورجل ذكر الله بلسانه خاليًا، أو تذكر بقلبه عظمة الله تعالى ولقاءه، ووقوفه بين يديه، ومحاسبته على أعماله، حال كونه خاليًا منفردًا عن الناس، وهذا أبعد عن الرياء، فسالت دموعه خوفًا من الله تعالى.

وإنما نال هؤلاء السبعة ذلك النعيم بالإخلاص لله تعالى ومخالفة الهوى، كل حسب موقعه وما يعرض له من الفتن والشهوات، والعدد سبعة ليس على سبيل الحصر، فقد وردت بعض الأخبار تحمل الفضل ذاته لأصناف أخرى من الناس، كمن أنظر معسرًا أو وضع عنه، ومن أعان غازيًا في سبيل الله، والتاجر الصدوق، وغير ذلك، وقد تتبع الحافظ ابن حجر أصناف المؤمنين ممن حازوا هذا الفضل فعدّ أصنافًا كثيرًا ذكر بعضها في شرحه للبخاري، والبعض الآخر في أماليه، ثم جاء السيوطي بعده وعدّ أصنافًا آخر، فدل هذا على أن العدد المذكور في هذا الحديث لا يفيد الحصر، كما نبه الحافظ رحمه الله على أمر آخر، فقال: "ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له، بل يشترك النساء معهم فيما ذكر، إلا إن كان المراد بالإمام العادل: الإمامة العظمى، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم، وتخرج خصلة ملازمة المسجد لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من

المسجد، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن^(١)، والله الموفق.
ويستفاد من الحديث: إثبات البعث والحشر، وفضل الأصناف السبعة المذكورة،
والحث على الاشتغال بطاعة الله جل في علاه، لأنها أسباب لنوال رضوانه في
الآخرة، وتهوين المحشر على عباده المخلصين، نسأل الله السداد.

* * *

(١) فتح الباري: (٢ / ١٤٧).

الحديث الثالث عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

هذا الحديث يبين إحدى فضائل هذه الأمة على الأمم السابقة، فهم الآخرون في الزمان، لأن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء والرسل، ولا نبي بعده، ولكنهم السابقون في الفضل والفضيلة يوم القيامة على الأمم السالفة من أهل الكتاب، بحيث تكون سابقة لهم في الحساب والقضاء ودخول الجنة، وقد جاء هذا المعنى مفسرًا في بعض طرق الحديث عند مسلم: «وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعًا: «نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»^(٢)، فله الحمد والمنة.

ويستفاد من الحديث: إثبات المعاد والحساب والجنة، مع إثبات أفضلية هذه الأمة على من سبقها، والله المستعان.

(١) رواه البخاري (٢٣٨) وموضع، ومسلم (٨٥٥).

(٢) رواه مسلم (٨٥٦)، والنسائي (١٣٦٨)، والبيهقي في الشعب (٢٧٠٦).

الحديث الرابع عشر

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿١﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٧، ٨] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقِشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِبَ»^(١).

أشكل على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك"، مع ما قرأته وحفظته من كلام جل وعلا: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿١﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٧، ٨]، ورأت بينهما شيئاً من التعارض، فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تسألُهُ باعتباره هو المرجع في تفسير ما يشكل على الناس في دينهم، فأوضح لها المعصوم عليه الصلاة والسلام أن الحساب يوم القيامة نوعان: حساب يسير وهو العرض، أي: إبراز الأعمال وإظهارها دون مناقشة أو استقصاء، وهذا خاص بأهل الرحمة والسعادة وحدهم، فيعرفهم الله تعالى بذنوبهم، ثم يتجاوز عنهم، ليدركوا منة الله عليهم في سترها عليهم في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة، والثاني: حساب مناقشة، وهو عسير شديد، ولا يخلو من العذاب، لأن العبد يناقش فيه على أخطائه بشدة، وترصد فيه جميع ذنوبه كبيرها وصغيرها، نسأل الله السلامة والعافية.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في أول الحديث: "هلك"، وفي آخره: "عُذِبَ"، وذلك لأن العذاب "له معنيان: أحدهما: أن نفس مناقشة الحساب وعرض الذنوب والتوقيف على قبيح ما سلف والتوبيخ تعذيب، والثاني: أنه يفضي إلى استحقاق العذاب، إذ لا حسنة للعبد إلا من عند الله لإِقْدَارِهِ عليها، وتفضله عليه بها، وهدايته لها"^(٢)، أي أن المعنى الأول مفضي إلى الآخر، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) رواه البخاري (٦٥٣٧) وموضع، ومسلم (٢٥٧٢). (٢) فتح الباري: (١١ / ٤٠٢).

ويستفاد من الحديث: إثبات الحساب والعرض والعذاب يوم القيامة، وتفاوت
الناس في الحساب، وأن من حق طالب العلم أن يسأل فيما أشكل عليه، وأن يراجع.

الحديث الخامس عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الدَّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَتَهَشَّ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْتَظِرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَصَلِّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ.

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ

عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ دُنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمِّتِي يَا رَبِّ، أُمِّتِي يَا رَبِّ، أُمِّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمِّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَجَمِيمَ^(١). أَوْ قَالَ: "أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى".

وقوله: نهس نهسة، أو نهش نهشة: أي قضم قضمة بأطراف أسنانه صلى الله عليه وسلم، والصعيد: الأرض المنبسطة الواسعة، والسيد: هو الذي يفوق قومه ويفزع إليه في الشدائد، وخص يوم القيامة بالذكر لارتفاع سؤده وتسليم جميع الخلق له، ولكون آدم عليه السلام وجميع ولده تحت لوائه، وهذا لا ينافي السيادة في الدنيا، فهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة.

والموقف المذكور يكون في أول الحشر قبل إلقاء الكتب وبدء الحساب، وهو موقف عصيب يشد فيه الزحام وتدنو فيه الشمس من الرؤوس، ويعظم الغم والكرب، ويطول الأمر كثيرًا حتى لا يجد الناس بدءًا سوى الاستشفاع بالأنبياء لمنزلتهم من الله تعالى، فيأتون آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه، وكل منهم يذكر ما يجعله يحجم عن التقدم للشفاعة، وإن كان ما ذكروه ليس بذنب يلاحقهم، فآدم عليه السلام غفر الله له ما كان من أكله من الشجرة، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠) ومواضع، ومسلم (٢٢٧٨).

[٣٧]، {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ} [طه: ١٢٢]، والكذبات الثلاث التي ذكرها إبراهيم عليه السلام كانت في الله، ومن أجل دينه، كقوله حين دعاه قومه إلى معابدهم وأنديتهم التي يشركون فيها بالله جل وعلا: {إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: ٨٩]، وقد غفر الله عز وجل لموسى قتله النفس التي قتلها قبل فراره إلى مدين: {فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ} [القصص: ١٥، ١٦]، ونحو ذلك.

والمقصود: أن الموقف يكون عظيمًا للدرجة التي تجعل صفوة رسل الله يحجمون عن التقدم للشفاعة العامة، فينهض لها خير أنبيائه ورسله، وإمام أهل الموقف، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه هي الشفاعة العامة العظمى لأهل المحشر جميعًا أن يبدأ الحساب ليخصوا مما هم فيه من الكرب والهول العظيم.

وأما قوله: "ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه..." فمعناه: أن المولى عز وجل يلهمه ويلقي في نفسه المحامد التي يحبها من عبادته، فتكون قرينة إليه سبحانه، فيقول له: "ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع"، وهذا قبول لشفاعته صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا الحديث: إثبات المعاد، وأيضًا إثبات كرامة النبي صلى الله عليه وسلم على ربه سبحانه، وإثبات الشفاعة العامة له صلى الله عليه وسلم، وفيه أيضًا: شدة هول الموقف يوم القيامة، وإثبات العرش الذي استوى عليه الرحمن استواء يليق بجلاله، وهو أعظم المخلوقات وأكبرها.

الحديث السادس عشر

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣]، وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ»^(١).

وفي بعض طرقه: "يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ قَوْمَكَ؟" الحديث، كذا على عموم الأنبياء والرسول دون تعيين نوح عليه السلام.

في هذا الحديث كرامة لأمة محمد عليه الصلاة والسلام إذ جعلها الله شاهدة على الأمم التي كذبت رسلها في الدنيا، وتريد أن تجحد هذا التكذيب في الآخرة لتتجو من العذاب، فإن قال قائل: كيف تشهد هذه الأمة على من سبقها من الأمم وهي لم تشهد تكذيبهم؟ فيجيب: بأن هذه شهادة مبناها على صدق الوحي الذي أوحاه الله تعالى في كتابه الكريم، فأمن به النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، وبه تشهد، قال أبو جعفر الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣]: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً: عدولاً لتكونوا شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمد صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكم، بإيمانكم به، وبما جاءكم به من عندي"^(٢).

وفي الحديث: إثبات المعاد، وإثبات النبوات التي سبقت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، مع إثبات بعض كرامات هذه الأمة، والله الموفق.

(١) رواه البخاري (٣٣٣٩) ومواضع، والترمذي (٢٩٦١)، وابن ماجه (٤٢٨٤)، وأحمد (١١٢٨٣).

(٢) تفسير الطبري "جامع البيان": (٣ / ١٤٥).

الحديث السابع عشر

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيَكْلَمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(١). وفي بعض طرقه: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكْلِمَةً طَيِّبَةً».

هو لفظ مختصر من حديث طويل لعدي بن حاتم رضي الله عنه حين قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ببعض الأمور الغيبية التي ستقع مستقبلاً، ومنها: ظهور هذا الدين وانتشاره في جزيرة العرب وما حولها، وخروج المسلمين لفتح بلاد الفرس والروم واغتنامهم كنوز هاتين الدولتين، حتى أتى على أمر غيبي سيقع يوم يوم القيامة، وهو: أن العبد سيقف بين يدي الله جل وعلا فيكلمه بلا واسطة، ودون الحاجة إلى ترجمان يترجم من لغة لأخرى، حتى تقام الحجة عليه، ثم ينظر الرجل عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، لارتكابه السيئات، ولا يجد الخلاص منها إلا بالمرور عليها، ولكي يتمكن من تجاوزها لا بد له من اتخاذ حاجز له منها، وهذا الحاجز قد يكون من أبسط الأمور: الصدقة والكلمة والطيبة، والله المستعان.

ويستفاد من الحديث: إثبات المعاد والحساب، وقرب النار من أهل الموقف، أعاذنا الله وإياكم، والإقبال على الطاعات والاستكثار منها، وألا يحتقر من المعروف أو الصدقة شيئاً ولو كان قليلاً، فإنه ينتفع به المتصدق والمتصدق عليه، وفيه أيضاً معجزة ظاهرة من معجزاته صلى الله عليه وسلم بإخباره عن أمور غيبية وقع بعضها بالفعل، كما أن في الحديث: إثبات صفة الكلام لله تعالى، على ما يليق بجلال الله وعظمته، فالله سبحانه يتكلم كما شاء بما شاء، لا يماثل كلام المخلوقين، والأدلة على ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة كثيرة.

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩)، ومواضع، ومسلم (١٠١٦).

الحديث الثامن عشر

عن نعيم بن عبد الله المجرم، قال: رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ، فَنَوَّضًا، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»^(١).

الغرة: بياض في الجبهة، والمراد بها هنا: النور الكائن في وجوه أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والتحجيل: بياض في الساق، والمراد به هنا أيضًا النور، فإن الوضوء يترك أثرًا في الوجه والساق واليدين يكون بياضًا ونورًا يوم القيامة، تختص به هذه الأمة من بين الأمم.

وهذا الحديث من أجمل فضائل الوضوء، وفيه كرامة لأهل الطهارة والصلاة، حيث يظهر على وجوههم أثر الوضوء في الآخرة، ويكون علامة مميزة يعرفهم بها المصطفى صلى الله عليه وسلم من بين جميع الأمم، وأما قوله في آخر الحديث: "فمن استطاع منكم أن يطيل غرته"، فقد اقتصر على الغرة لدلالاتها على التحجيل دون الحاجة لإعادة ذكره، و"لأن محل الغرة أشرف أعضاء الوضوء، وأول ما يقع عليه النظر من الإنسان"^(٢)، والله تعالى أعلم.

وقد أشكل هذا الحديث على بعض أهل العلم، إذ أن الوضوء لم تختص به هذه الأمة وحدها، وقد عرفته الأمم من قبل، وقد جاء في قصة إبراهيم عليه السلام حين قدم مع زوجته سارة على أحد الجبابرة: "فَقَامَتْ تَوَضُّأً وَتُصَلِّي" ^(٣)، فدل هذا على أن الوضوء كان مشروعًا في الأمم السابقة، ولم تختص به أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحدها لتعرف به من بين جميع الأمم!

والجواب: أن الذي اختصت به هذه الأمة صفة الوضوء المتضمنة الغرة والتحجيل، لا أصل الوضوء، فكما أن صلاة هذه الأمة لا تشابه صلاة من قبلها،

(١) رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

(٢) فتح الباري: (١ / ٢٣٦).

(٣) رواه البخاري (٢٢١٧) وموضع، ومسلم (٢٣٧١).

ولا صيامها يطابق صيام من قبلها، فكذلك الوضوء، ولهذا جاء في صحيح مسلم: «نَعَمْ لَكُمْ سِيَمًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرُدُّونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُجَلِّينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ»^(١). وفي الحديث: إثبات المعاد، وإظهار بعض خصوصية هذه الأمة عن سواها، وفضل الوضوء والطهارة، والله الموفق.

* * *

(١) رواه مسلم (٢٤٧).

الحديث التاسع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ كُلِّهَا، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكَتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

الإخلاص هو شرط قبول الأعمال، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ} [البينة: ٥]، فمن أقدم على عمل شرعي لم يرد به وجه الله تعالى يُرَدُّ عمله إليه، ويكفيه ما حصل عليه من ثناء الناس الذين قصدهم بعمله، ثم يجازى على شركه فيه، وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم الرياء شركاً أصغر، لأنه ذريعة إلى الشرك الأكبر، ووسيلة للوقوع فيه.

وقول كل واحد منهم: "قاتلت فيك" - "قرأت فيك القرآن" - أنفقت فيها لك" هو من قبيل التمسك بالكذب في الآخرة، كما هو الحال في الدنيا، بغرض الفرار من العذاب، وذلك كما قال الله تعالى في المنافقين: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ مَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة: ١٨].

وهذا الحديث جمع بين ثلاثة أصناف من المرائين: المجاهد، والقارئ أو العالم،

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧)، والترمذي (٢٣٨٢)، وأحمد (٨٢٧٧).

والمنفق، ويشترك ثلاثتهم في كون أعمالهم متعدية إلى غيرهم، وكون ثلاثتها من أَجَلِّ الأعمال التي تكسب ثناء الناس، فمن عملها بإخلاص لم يضره ثناء الناس عليه، بل كانت شهادة له منهم، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ"^(١)، أما من عملها من أجل الحصول على هذا الثناء فقد نال مراده في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار، والعياذ بالله تعالى.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، وذم الرياء والتحذير منه، وتشديد العقوبة عليه، وامتهان وإذلال المرائين على رؤوس الأشهاد، نسأل الله العافية.

(١) رواه البخاري (١٣٦٧)، مسلم (٩٤٩).

الحديث العشرون

عن عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري، أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، طَلَبَ غَرِيماً لَهُ، فَتَوَارَى عَنْهُ، ثُمَّ وَجَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مُعَسِّرٌ، فَقَالَ: أَلَلَّهِ؟ قَالَ: أَلَلَّهِ. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيهُ اللَّهُ مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَنْفَسْ عَنْ مُعَسِّرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»، وفي لفظ آخر: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَأْمَنَ مِنْ غَمِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيَنْظُرْ مُعَسِّراً أَوْ لِيَضَعْ عَنْهُ»^(١).

الغريم هو الشخص المدين لغيره، وقد كان لأبي قتادة رضي الله عنه دين على ذاك الرجل، فجعل يتوارى منه، فلما علم أبو قتادة بحاله، واستحلفه ليتيقن من عسره، ذكر له هذا الحديث وأنظره أو وضع عنه، والكرب: هو الشدة والفاقة، وكُرْب يوم القيامة: شداؤها وأهوالها، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "قلينفس عن معسر"، أي: يمد ويؤخر المطالبة بالدين لمن لم يستطع الوفاء به في وقت حلوله، وقوله: "أو يضع عنه"، أي: يسقط بعض الدين عنه أو كله.

وفي الحديث: إثبات المعاد وأهوال القيامة، وبيان بعض طرق الخلاص من أهواله، أو تخفيفها، والحث على إنظار المعسر أو وضع الدين عنه ابتغاء وجه الله تعالى، والجزاء من جنس العمل.

(١) رواه مسلم (١٥٦٣)، واللفظ الآخر عند الطبراني (٣٢٧٧).

الحديث الحادي والعشرون

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْإِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»، وَقَالَ: «النَّايِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "أربع"، أي: أربع خصال، بحذف المعداد لدلالة الكلام عليه، "من أمر الجاهلية" أي: كانت شائعة في أهل الجاهلية، ولا يزال يتمسك بها بعض أهل الإسلام، أو كثير منهم، والنبي صلى الله عليه وسلم يذكرها ليحذر منها.

فأما الفخر في الأنساب: يعني الافتخار بمناقب ومآثر الآباء والأجداد، على سبيل التكبر والتعظم واحتقار الغير، وأما الطعن في الأنساب فيقصد به: إدخال العيب في أنساب الناس، كالتعيير بالنسب، أو نفي نسب الرجل إلى أبيه، أو الانتقاص من شرفه، وهذا باب فتنة عريض، ورمي لأعراض الناس حيهم وميتهم. وأما الاستسقاء بالنجوم فيقصد به: الدعاء وطلب السقيا بنزول المطر، باعتقاد أن النجوم سبب في ذلك، كما كانوا يقولون في الجاهلية: مطرنا بنوء كذا، والاعتقاد بأنها المؤثرة في نزول المطر حقيقة كفر والعياذ بالله، وأما النياحة: فهي البكاء على الميت بصياح وعويل وجزع، وعد شمائل الميت ومحاسنه، وإبراز التحسر لفقده، والتسخط على القضاء.

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم عقوبة النائحة في الآخرة: أنها توقف أمام أهل المحشر لتقضح أمامهم، وعليها سربال - أي قميص - من القطران، وهو النحاس المذاب، أو هو طلاء يطلّى به الجمل الأجرب، فيحرق الجرب، وقد تبلغ حرارته الجوف، عليها أيضاً درع من جرب، والدرع نوع من قمصان النساء، فيكون عليها

(١) رواه مسلم (٩٣٤)، وابن ماجه (١٥٨١)، وأحمد (٢٢٩٠٣).

قميص آخر من جرب، والمعنى: أن كل جلدها يكون جربًا بمنزلة الدرع، بحيث يغطي جلدها تغطية الدرع ويلتصق بها، جزاء على نياحتها في الدنيا.

وهذا العذاب يكون على النياحة والتعديد، لما فيهما من إظهار الاعتراض على قدر الله، أما البكاء الخالي من النواح والعيول والجزع على سبيل الحزن والرحمة على الميت، فلا شيء فيه بإذن الله.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، وأن بعض الناس يحشرون على هيئة مخصوصة بحسب أعمالهم، وبعض الأعمال يجازى عليها العبد أثناء الموقف والحشر علانية على رؤوس الأشهاد، والتحذير من الأعمال المذكورة، لصيانة أعراض الناس، والكف عن حرمتهم، وعن التسخط من القدر، والله المستعان.

الحديث الثاني والعشرون

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، أَقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقْرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّيْتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ، نَحَاجَانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، أَقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقْرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ»^(١).

القرآن هو كلام الله عز وجل، المنزل على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وهو دستور هذه الأمة الذي يحتوي على مبادئ تشريعها، ويرشد المؤمن إلى طريق الهداية في الدنيا، وسبيل النجاة في الآخرة، فتلاوته خير للمؤمن، وتدبره خير، وحفظه خير، والعمل بما فيه خير، ومحصلة ذلك كله أن القرآن يأتي يوم القيامة ليشفع لأهله الذين واطبوا على حفظه وتلاوته وتدبره والعمل بما فيه في الدنيا، نسأل الله التوفيق والسداد.

يحث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على الإقبال على تلاوة القرآن الكريم وتدبره وحفظه، مستعملًا الأمر "أقروا"، ليشمل القرآن كله، ثم أعاد الأمر مع سور مخصوصة لها فضائل مخصوصة، ذكر منها البقرة وآل عمران، وسماهما "الزهروين" أي: المنيرتين، وأكد أن هاتين السورتين تأتيان يوم القيامة على ثلاث صفات: الأولى: كأنهما غمامتان، أي: سحابتان، تُظِلَّانِ صاحبهما عن حر الموقف، والثانية: كأنهما غيايتان، وهي أعم من السابقة، فالغياية: كل ما أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها، والثالثة: كأنهما فرقان، أي: طائفتان وجماعتان، من طير صواف، وهي جماعة الطير الباسطة أجنحتها متصلًا بعضها ببعض، والمراد أنهما يقيان قارئهما من حر الموقف، وكرب يوم القيامة، وتدافعان

(١) رواه مسلم (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٤٦).

الجحيم والزبانية، أو تجادلان عنه بالشفاعة، وهذا يدل على قدرة الله تعالى على تحويل الأعراض إلى أجسام، فثواب القرآن الكريم يتحول إلى غمام أو فرق من طير تظلل قارئ القرآن يوم القيامة، قال ابن تيمية رحمه الله: "فسروا هذا الحديث: بأن المراد به مجيء ثواب البقرة وآل عمران، كما ذكر مثل ذلك من مجيء الأعمال في القبر وفي القيامة، والمراد منه ثواب الأعمال"^(١).

ثم عاد مرة وكرر الأمر للمرة الثالثة وخص سورة البقرة وحدها لأن لها مزيد فضل على الأخرى، بأن أخذها - أي المواظبة على تلاوتها وتدبرها - بركة، أي: زيادة ونماء في الخير، وتركها حسرة أي: ندم وتأسف على تقويت ثوابها وفضلها، ولا يقدر عليها البطلة، وهم السحرة، فهي حصن لقارئها وحافظته من السحر ونحوه، والله المستعان.

ويؤخذ من الحديث: إثبات المعاد، وشفاعة القرآن لأهله، وفيه أيضاً: الحث على تلاوة القرآن وتدبره، وتخصيص بعض سورته بالفضل، والله الموفق.

(١) شرح حديث النزول: (١ / ٥٦).

الحديث الثالث والعشرون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أَنْزِلْتُ عَلَى آتِفَا سُورَةٍ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} فَصَلَّ لِرَبِّكَ وَأَنَحَرْتُ {إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ١-٣]، ثُمَّ قَالَ: «اتَّذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثْتُ بِعَدِكَ»^(١).

"بيننا" بمعنى بينما، و"أغفى إغفاءة" أي: نام نومة خفيفة، والشانئ: هو المبغض، والأبتر: في الأصل هو المنقطع العقب، أي الذي لا ولد له، والمراد في الآية: المنقطع عن كل خير.

والحديث يصف الحوض الذي اختص به النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحشر، وهو نهر كبير جدًا، طوله وعرضه مسيرة شهر، وماؤه أشد بياضًا من اللبن، ومذاقه أحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه التي يُعترف بها كعدد نجوم السماء ولمعانها، وقيل إنه سمي بالكوثر لكثرة مائه وآنيته، وعظم بركته وخيره وقدره، ولا يشرب منه إلا أهل السعادة من هذه الأمة، نسأل الله العلي القدير أن يجعلنا منهم.

وقوله: "فيختلج العبد منهم"، أي: يُنتزع ويُقتطع من بين الواردين على الحوض، فيظهر هنا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته، فيقول: "رب، إنه من أمتي"، فيجاب: ما تدري ما أحدثت بعدك"، أي: إنك لا تعلم ما غيرت أمتك وبدلت من بعدك، عما تركتهم عليه من الالتزام بأمر الله سبحانه وتعالى والانتهاز عما نهى عنه، فاللهم ارزقنا الثبات على دينك وسنة نبيك. وهؤلاء المختلجون قيل إنهم أهل

(١) رواه مسلم (٤٠٠)، والنسائي (٩٠٤)، وأبو داود (٤٧٤٧)، وأحمد (١١٩٩٦).

الردة الذين ارتدوا عن الإسلام عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل هم أهل الأهواء والبدع الذين فتنوا الناس في دينهم، وقيل: الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق، وفي هذا تهديد شديد لكل من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله بأن يكون من المطرودين عن الحوض، نسأل الله العافية ونعوذ به من الخذلان.

ويؤخذ من الحديث: إثبات المعاد، وإثبات الحوض لنبيينا محمد صلى الله عليه بصفته التي ذكرتها السنة، والتحذير الشديد من البدع والجور وإضلال الناس وقتنتهم، نسأل الله السداد.

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، وفي بعض طرقه: "وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ"^(١).

هذا واحد من أخبار ثلاثة ساقها الإمام مسلم على التوالي في أصناف من الناس لا يكلمهم الله يوم القيامة، واختلف في معنى الكلام المنفي ها هنا، فقيل: "لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات وباظهار الرضى، بل بكلام أهل السخط والغضب، وقيل: المراد الإعراض عنهم، وقال جمهور المفسرين لا يكلمهم كلاماً ينفعهم ويسرهم، وقيل: لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية"^(٢)، وهذه الوجوه كلها محتملة ولا منافاة بينها.

أما قوله: "ولا ينظر إليهم" أي: يعرض عنهم، فلا ينظر إليهم نظرة رحمة، وهذه مبالغة في العقوبة، وقوله: "ولا يزكّيهم" أي: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم، وقيل لا يثني عليهم في المأل الأعلى تحقيراً لهم، وأما قوله: "ولهم عذاب أليم" أي: فوق كل تلك العقوبات فسوف يوقع الله تعالى بهم عذاباً عظيماً في النار، فيضاعف عليهم العقوبة، نسأل الله العافية.

وأما هذه الفئات الثلاث المذكورة في الحديث، فهي: الشيخ الزاني، وقد اختص الشيخ - أي الرجل الذي كبرت سنه - ها هنا دون الشاب، لأنه قد بلغ من الرشد والعقل وذهاب الشهوة ما يردعه عن ذلك، فليس للفاحشة في حاله دواعٍ قوية تغلبه كمثّل الشاب، والزنا كله فاحشة ومن الكبائر، سواء من الشاب أم من الشيخ، لكنه من الشيخ أشد وأعظم لقلة دواعيه وضعف أسبابه.

والملك الكذاب، وهو الأمير الغاش لرعيته، الذي يخدعهم في أمور دينهم ودنياهم ليجور عليهم ويمنعهم حقوقهم، والكذب في كل الأحوال إثم، لكنه في حق الملوك

(١) رواه مسلم (١٠٧)، والنسائي (٢٥٧٥)، وأحمد (١٠٢٢٧).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: (١١٦ / ٢).

والأمرأ أشد وأعظم لأنه كفيل بإفساد الرعية كلها.

والعائل المستكبر، وهو الفقير ذو العيال، ولا يقدر على تحصيل نفقتهم، ومع ذلك هو مختال مستكبر، والاستكبار مذموم في كل الأحوال، إلا أنه في حق مثل هذا لا دواعي له، فهو أشد وأعظم، وقد يدفعه الكبر إلى التقاعس عن العمل وكسب العيش، فيجبع عياله ويقصر في نفقتهم.

والعدد ثلاثة ليس على سبيل الحصر، فقد وردت أصناف أخرى من الناس لهم نفس الوعيد، منهم ما جاء في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه مرفوعاً: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمَنْفَقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ»^(١)، وفي حديث آخر لأبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ثَلَاثٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَرْكَبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ مِنْ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَفَفَ لَهُ بِاللَّهِ لِأَخْذِهَا بِكَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ، وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ»^(٢).

فالثلاثة الذين في حديث أبي ذر رضي الله عنه: المنان: وهو الذي يمينُ بالعتاء بعد أن يعطيه، والمنُ في العطية هو التفاضل والتعالي على الآخذ، وهذا ينافي ما قدمه له من إحسان، وفيه أيضاً استعباد للمنفق عليه، وكسر قلبه وإذلاله، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب: هو التاجر الذي يحلف على بضاعته كاذباً ليروجها ويحليها في أعين المشتريين بالكذب والخداع، وقد جمع بذلك بين أربع موبقات: الحلف الكاذب، وغش المسلم، وأخذ المال بغير حق، والاستخفاف بحق الله تعالى الذي حلف به، والمسبيل إزاره: هو الذي يطيل ثيابه ويتركها تجرر على الأرض تكبراً وفخراً.

(١) رواه مسلم (١٠٦)، والنسائي (٢٥٦٣)، وأبو داود (٤٠٨٧)، والترمذي (١٢١١)، وأحمد (٢١٣١٨).

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٨) ومواضع، ومسلم (١٠٨).

والثلاثة الذين في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رجل كان له ماء زائد عن حاجته، فلم يسق منه عابر السبيل، وهو المسافر المضطر للماء، وقد يهلك بدونه، ورجل بايع الإمام - وهو الخليفة - وعاهده على الطاعة والسمع، لكن ذلك لم يكن امتثالاً لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما لينال من عطاء الخليفة ومتاع الدنيا، فإذا أعطي ما أراد رضي به وتابعه، وإن منع سخط وغضب عليه، ورجل يبيع سلعته مقسماً بالله تعالى أنه اشتراها بثمن معين، فصدقه المشتري لأجل تلك اليمين، وهو كاذب في يمينه.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وإثبات صفة الكلام والنظر لله عز وجل على الوجه اللائق به جل جلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف، فإن لم يكلم الأصناف المذكورة ولم ينظر إليهم، فهو يكلم غيرهم وينظر إليهم، والله الموفق.

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

وهو آخر حديث في صحيح البخاري رحمه الله تعالى وجزاه خير الجزاء، كأنه قصد الحمد والشكر والتقديس لله عز وجل على ما وفقه إليه من إتمام هذا العمل الجليل النافع، وهو أهل الثناء والحمد سبحانه وتعالى.

الكلمة تقال على اللفظة الواحدة، وعلى العبارة التامة، وعلى أكثر من ذلك، قال أهل اللغة: "الكلمة" تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة حروف ذات معنى، وتقع على قصيدة بكمالها، وخطبة بأسرها^(٢).

وقد صرح الحديث بالكلمتين المرادتين، وهما: "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"، والتسبيح المقترن بالحمد يعني تنزيه المولى عز وجل عن كل نقص وعيب، وحمده على ما يسر عباده إليه من التسبيح والطاعات، وقوله: "خفيفتان على اللسان" أي: سهلتان عليه، لا مشقة في قولهما على أية حال، وسهل أيضًا اعتيادهما وتكرارهما في كل وقت.

وقوله: "ثقيلتان في الميزان"، يعني في وزن الحسنات التي يحصلها العبد عند التلاطف بهما، وذلك يوم القيامة حيث توزن الأعمال، ويجازي عليها الله عز وجل، وقوله: "حبيبتان إلى الرحمن" يعني: يحبهما الله سبحانه وتعالى، فهذا يدل على أن تسبيح الله وحمده من أفضل الطاعات والقربات، وأعظمها أجرًا عنده جل وعلا.

وفي الحديث: إثبات المعاد، ووزن الأعمال، وبيان سعة رحمة الله بعباده، فهو يجزي على العمل القليل بالثواب الجزيل، والله الموفق.

(٢) لسان العرب: (١٢ / ٥٢٤).

(١) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

الحديث السادس والعشرون

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ»^(١)، وفي غير الصحيحين: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحْكَمُ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الدِّمَاءِ»^(٢).

في هذا الحديث تغليظ أمر الدماء، وهي النفوس التي تُقْتَل ظُلْمًا، فهي أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وهذا لعظم أمرها وحرمتها، وقد جاء في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ»^(٣)، ولا منافاة بين الحديثين، فالدماء هي أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق العباد، والصلاة هي أول ما يحاسب عليه من حقوق الله جل وعلا، وقد اجتمع الاثنان معًا عند النسائي: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ»^(٤).

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، والقضاء بين الناس يوم القيامة، والحكم بين المتنازعين والاقتصاص للمظلوم من ظالمه، وفيه أيضًا تعظيم حرمة الدماء.

(١) رواه البخاري (٦٥٣٣) - (٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨).

(٢) هذا لفظ الترمذي (١٣٩٦)، والبيهقي في الشعب (٤٩٥٥).

(٣) رواه أبو داود (٨٦٤)، والنسائي (٤٦٥)، والترمذي (٤١٣)، وابن ماجه (١٤٢٥).

(٤) رواه النسائي (٣٩٩١).

الحديث السابع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، وَقَالَ: «افْرَعُوا، فَلَا نُفَيْمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا» [الكهف: ١٠٥]»^(١).

الرجل العظيم السمين يعني: الضخم في جسمه ولا إيمان في قلبه، وفي الحديث: إثبات الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة، مثلما في قول الله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ} [الأعراف: ٨، ٩].

وظاهر الحديث أن الذي يوزن هو العبد نفسه، بينما دلت أخبار أخرى على أن الوزن يكون للأعمال: الحسنات والسيئات، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ.." الحديث^(٢)، ودلت بعض الأخبار أيضاً، على أن الصحائف التي تكتب فيها الحسنات والسيئات هي التي توضع في الميزان، قال ابن كثير رحمه الله: "يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم"^(٣).

والميزان يكون بعد الحساب عند جمهور العلماء، قال القرطبي رحمه الله: "وإذا انقضى الحساب، كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها"^(٤)، والله تعالى أعلم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك من يستثنى من الحساب والميزان، فبعض المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، مثلما ورد في صحيح الأخبار، وقيل: إن

(١) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) تقدم تخريجه بفضل الله تعالى. (٣) تفسير القرآن العظيم: (٣ / ٣٩٠).

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: ص (٧١٥).

بعض الكفار يدخلون النار أيضًا بغير حساب، واستأنس أصحاب هذا القول بالآية الكريمة: {يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ} [الرحمن: ٤١]، والله أعلم، نسأل الله السلامة والعافية.

الحديث الثامن والعشرون

عن صفوان بن محرز المازني، قال: بَيَّنَّمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتَرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟» فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكٌ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفِزُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: {هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: ١٨]»^(١).

النجوى: هي التكاليم سرًا، أو إسرار الواحد بالكلام مع آخر على انفراد، والمراد هنا: ما يقع بين الله تعالى وبين عبده المؤمن يوم القيامة من إطلاعه على معاصيه سرًا فضلًا منه سبحانه، وقوله صلى الله عليه وسلم: "يدني المؤمن" أي: يقربه، وقوله: "يضع عليه كنفه" قال ابن تيمية رحمه الله: "مستفاد من قرب الرحمة، يقال: أنا في كنف فلان، أي: في إنعامه"^(٢)، قلت: معناه: يلقي عليه ستره وحفظه، فيستره عن رؤية الخلق له، لئلا يفتضح أمامهم فيخزي، وهذا على عكس ما يكون في شأن الكافر والمنافق، فإنهم يفتضحون على رؤوس الأشهاد، جزاء لهم على ما كذبوا على ربهم، ونسبوا إليه ما لا يليق من الزوجة والولد والشريك والند، واللعنة: هي الطرد والإبعاد من رحمته جل وعلا، وتقدير العذاب الدائم في جهنم، نسأل الله العافية.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، والتمييز بين حال المؤمن ومن سواه، فقد يحاسب المؤمن على ما كان منه من آثام، إلا أن الله تعالى يستره ويعفو عنه، أما الكافر والمنافق فيفضح أمام الخلائق.

(١) رواه البخاري (٢٤٤١) ومواضع، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) بيان تلبيس الجهمية: (٨ / ١٦٦).

الحديث التاسع والعشرون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدُرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مَنْ مُخَاطَبَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيَقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَّ كُنْتُ أَنَا ضَلُّ»^(١).

في الحديث يوتى بأحد العصاة، فيدلي بحجته أمام الله ليخلص نفسه من العذاب، فيقول لربه جل وعلا: "إني لا أجز على نفسي إلا شاهدًا مني"، وكأن الرجل أراد بالشاهد أقاربه، ومن كانوا يرونه في الدنيا يأتي تلك الأعمال فيسترونها عليه، أو يدفعون عنه أي تهمة، فيقول الرب تبارك وتعالى له: {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤]، أي: لا أحد أقرب إليك من أعضاء جسدك، ويختم على فمه، فيقال لأعضائه: انطقي، فتتطرق الأركان بأعماله وأفعاله التي باشرها وارتكبها، لا تتكلم مما عمل شيئًا، ولا تخفي شيئًا، ثم يرفع الختم عن فمه ليتكلم بالكلام المعتاد، فيقول لأعضائه التي شهدت عليه: بعدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، أي: هلاكًا لَكُنَّ.

وقوله: "فعنكن كنت أناضل" أي: لأجل خلاصكن من العذاب كنت أدافع وأجادل، ومصدق هذا في القرآن الكريم: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس: ٦٥]، وقوله جل شأنه: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الشع: ٣٢] وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ [الشع: ٣٣] وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩)، وأبو يعلى (٣٩٧٧)، وابن حبان (٧٣٥٨)، والحاكم (٨٧٧٨).

يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت: ٢٠ - ٢٢].

وفي نطق الجوارح وإشهادها إعجاز دالٌّ على عظيم قدرة الله تعالى، كما أنه أبلغ مظاهر العدل يوم القيامة، قال القرطبي رحمه الله: "إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق، لخروجه مخرج الإعجاز، إن كان يومًا لا يحتاج إلى إعجاز"^(١).

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، وإثبات صفة الكلام لله جل وعلا على الوجه الذي يليق به، والكلام مع الكفار يكون كلام توبيخ وتبكيث وتقريع، على النحو الذي تقدم في شرح حديث سابق، وبيان عظمة قدرة الله تعالى وتماام عدله، والله المستعان.

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٤٩).

الحديث الثلاثون

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

الحديث من أهم وأعظم فضائل المؤذنين، واختلف أهل العلم في تأويله، فمنهم من حمّله على ظاهره، قالوا: إذا أُلجم الناس العرق يوم القيامة طالت أعناقهم لنُألّ ينالهم ذلك الكرب والعرق، ومنهم من حمّلها على المجاز، قالوا: معناه أن المؤذنين أكثر الناس تشوّقًا إلى رحمة الله تعالى، لأنّ المتشوف يطيل عنقه إلى ما يتطلّع إليه فمعناه كثرة ما يروّنه من الثواب^(٢)، وقيل: معناه أنهم يكونون سادة ورؤساء يوم المحشر، والعرب تصف السادة بطول العنق، وقيل: معناه أكثر أتباعًا، فكل من سمع النداء للصلاة ولباه يأتي تابِعًا لهم، والله تعالى أعلم.

وبالجملة: إن الحديث خرج مخرج الثناء عليهم، والتشريف لهم، فلا شك أنه وعد صادق بحسن الثواب لهم، وفي الحديث: إثبات المعاد، وإثبات بعض الخصوصية لبعض الفئات من الناس، حيث يحشرون على هيئة مخصوصة بحسب ما أسلفوا في دنياهم، والله الموفق.

(١) رواه مسلم (٣٨٧)، وابن ماجه (٧٢٥)، وأحمد (١٦٨٦١).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: (٩١ / ٤) (٩٢).

الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ تَكُونُ لَهُ إِبِلٌ، أَوْ بَقَرٌ، أَوْ غَنَمٌ، لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا، إِلَّا أَتَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَعْظَمَ مَا تَكُونُ وَأَسْمَنُهُ تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَنْتَطِحُهُ بِقُرُونِهَا، كُلَّمَا جَازَتْ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ»^(١).

الحديث يحذر تحذيرًا شديدًا من إثم منع الزكاة المفروضة على أصحاب الأموال ونحوها، حيث يبدأ عقابه في المحشر قبل بدء الحساب، فإن كانت تلك البهائم من ذوات الأخفاف كالإبل، فإنها تظل تطوّه بأخفافها دون توقف حتى يبدأ الحساب، وإن كانت من ذوات القرون كالأغنام، فإنها تظل تنتطحه بقرونها دون توقف حتى يبدأ الحساب، وذلك كله على رؤوس الأشهاد.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحشر، وأن بعض الفئات من الناس يحشرون على صورة مخصوصة، ويحصلون على جزء من عقوبتهم قبل بدء الحساب، نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ به من الخذلان.

(١) رواه البخاري (١٤٦٠)، ومسلم (٩٩٠).

الحديث الثاني والثلاثون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا»، وفي بعض طرقه: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدِّقْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صَدَّقْتُ، وَإِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ»^(١).

في الحديث بعض مناقب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإثبات الشفاعة له، وهو أول من يشفع في الجنة لأنه أول من يدخلها، وشفاعته على أنواع: فمنها شفاعته صلى الله عليه وسلم لبعض العصاة يوم القيامة ليدخلهم الجنة، أو ليخفف من عذابهم في النار، وشفاعته لخروج بعض الموحدين من النار بعد دخولها، وشفاعته لمن في الجنة ليرفع درجاتهم فيها، هذا بجانب الشفاعة العامة لأهل الموقف ليقضى بينهم، ومن مناقبه صلى الله عليه وسلم كذلك: أنه أكثر الأنبياء أتباعًا مؤمنين به وبرسالته يوم القيامة، وكثرة الأتباع في الخير فضيلة كبرى، لأنه صلى الله عليه وسلم يؤتى أجور أتباعه، لأن من دعا إلى الهدى فله أجره وأجر من تبعه، وبذلك تظهر هذه الفضيلة لنبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وفيه كذلك فضيلة لهذه الأمة، فقد أكرمها الله عز وجل إكرامًا لنبيها، فهم نصف أهل الجنة كما دلت على ذلك الأخبار.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة شفاعات أخرى للملائكة، والشهداء، وبعض المؤمنين، وأولاد المسلمين الذين ماتوا صغارًا، والله الموفق. وفي الحديث: إثبات المعاد والحشر والشفاعة، وبيان التكريم الرباني لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) رواه مسلم (١٩٦)، وابن أبي شيبة (٣١٦٥١)، والبيهقي في الشعب (٣٠٢).

الحديث الثالث والثلاثون

عن الأسود بن سريع رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُّ، وَرَجُلٌ هَرَمَ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فِتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصَّبِيَّانُ يَحْدِفُونِي بِالْبَغْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَغِقُلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاتِيْقَهُمْ لِيُطِيعَنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»^(١).

أربعة أصناف من البشر يدلون بحجتهم يوم القيامة للخلاص من العذاب: الأصم، وهو كل ذي عاهة حالت بينه وبين بلوغه الدعوة، وخص الأصم بالذكر لأن الصمم أشد العاهات التي تعزل الإنسان عن سماع الذكر، فالأعمى يمكنه سماع الدعوة والخطبة والموعظة، وكذلك الأبكم الذي يعجز عن النطق وحده، والقعيد الذي لا يتمكن من المشي، والأصم إذا أمكنه تلقي الدعوة والعلم، ومعرفة أصول الإسلام سقطت هذه الحجة عنه، والله تعالى أعلم.

والصنف الثاني: الأحمق، أي: المجنون الذي لا عقل له ولا فهم، ومن ثم فإنه لا يمكنه فهم الدعوة ومعرفة الإيمان وأركانه، والعمل بها، والصنف الثالث: الشيخ الهرم، أي: من بلغته الدعوة وقد بلغ أرذل العمر، وقد خف عقله وخارت قواه، فلم يمكنه تلقي الدعوة والعمل بها، والصنف الرابع: من مات في الفترة، أي قبل ظهور الإسلام، أو لم يأت به نبي يبلغه الدعوة، مثل أهل الجاهلية الذي هلكوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

وهؤلاء جميعًا حكمهم أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، بأن يأخذ الله سبحانه مواتيقيهم وعهودهم بأن يطيعوه في الحال فيما يأمرهم به، فيقبلون، فيأمرهم - اختبارًا

(١) رواه أحمد (١٦٣٠١)، وابن حبان (٧٣٥٧)، والطبراني (٨٤١).

لهم - بأن يدخلوا النار، فمن أطاع ودخلها امتثالاً لأمر الله كانت عليه برًا وسلامًا، لم تضره، ومن لم يدخلها عصيًّا لأمر الله تعالى سُحب إليها ودفع فيها دفعًا، لأنه إن كان قد عصى الله في عرصات القيامة، بعد ظهور الدلائل القاطعة، فهو في الدنيا أعصى وأكفر، نسأل الله العافية.

وقد اعترض بعضهم على هذا الحديث زاعمين أن الدنيا هي دار الامتحان والتكليف، لا الآخرة، وهذا الاعتراض مردود عليهم، فقد ثبت بصحيح الأخبار أن الإنسان يمتحن في قبره وقد فارق الدنيا، كما يمتحن أهل الموقف جميعًا بأن يؤمروا بالسجود لله تعالى، وغير ذلك، وإنما يكون عدم التكليف بعد أن يقع الاستقرار في الجنة أو النار، وأما في عرصات القيامة فلا مانع من الاختبار، قال ابن القيم رحمه الله: "قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان في الدار الآخرة، وقالوا: لا ينقطع التكليف إلا بدخول دار القرار، ذكره البيهقي عن غير واحد من السلف"^(١)، وقال ابن كثير رحمه الله: "وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ النقاد"^(٢).

وفي الحديث: إثبات المعاد، وبيان عدل الله تعالى، وأنه لا يظلم أحدًا، ولا يعذب أحدًا إلا بعد بلوغ الحجة.

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین: (١ / ٤٠٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٥ / ٥٨).

الحديث الرابع والثلاثون

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ النَّامَةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).
النِّدَاءُ هُوَ الْأَذَانُ، أَي: الإِعْلَامُ بِدُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ، وَ"الدَّعْوَةُ النَّامَةُ" يَرَادُ بِهَا: أَلْفَاظُ الْأَذَانِ الَّتِي يَدْعَى بِهَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ الدَّعْوَةُ الْكَامِلَةُ الَّتِي لَا يَدْخُلُهَا تَغْيِيرٌ وَلَا تَبْدِيلٌ، بَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْوَسِيلَةُ: هِيَ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي لَا تَتَّبَعِي إِلَّا لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْفَضِيلَةُ: هِيَ الْمَرْتَبَةُ الزَّائِدَةُ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقِينَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَضِيلَةُ مَنْزِلَةٌ أُخْرَى.
وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ: هُوَ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ الْعَظْمَى الَّتِي يَحْمَدُهُ لِأَجْلِهَا جَمِيعُ أَهْلِ الْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ وَعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإِسْرَاءُ: ٧٩].

وهذا الذكر الوارد في الحديث ينبغي أن يداوم عليه العبد كلما سمع الأذان، ومن فضله أن من واطب عليه استوجب واستحق شفاعَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ فِيهَا، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "مَنْ سَأَلَ لَهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ فَقَدْ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَلَمَّا دَعَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَحَقُّوا أَنْ يَدْعُوَهُمْ هُوَ لَهُمْ، فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ نَوْعٌ مِنَ الدَّعَاءِ"^(٢).

وفي الحديث: إثبات المعاد والشَّفَاعَةِ الْعَظْمَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيهِ الْحُضُّ عَلَى الذِّكْرِ وَالدَّعَاءِ، لَا سِيَّمَا فِي أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ حِينَ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِلرَّحْمَةِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(١) رواه البخاري (٦١٤)، وأبو داود (٥٢٩)، والنسائي (٦٨٠)، والترمذي (٢١١)، وابن ماجه (٧٢٢)، وأحمد (١٤٦١٩).
(٢) مجموع الفتاوى: (١ / ٢٠٠).

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي حسان خالد بن غلاق القيسي قال: قُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِي ابْنَانِ، فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَدِيثٍ تُطِيبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: قَالَ: نَعَمْ، «صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ - أَوْ قَالَ: أَبَوَيْهِ -، فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ - أَوْ قَالَ: بِيَدِهِ -، كَمَا آخُذُ أَنَا بِصِنْفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا، فَلَا يَنْتَاهِي - أَوْ قَالَ: فَلَا يَنْتَهِي - حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ»^(١).

دعاميص الجنة: أي صغار أهلها، قال النووي رحمه الله: "وأصل الدعاموص: دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي أن هذا الصغير في الجنة لا يفارقها"^(٢)، وصنفه الثوب: أي طرفه.

والحديث فيه مواساة جليلة لمن مات له ولد من المسلمين، وفيه إثبات المعاد وشفاعة الولدان لأبائهم، وفيه أيضاً: الحث على الصبر على فقد الولد واحتسابه، وإثبات أن أطفال المسلمين في الجنة إن شاء الله تعالى.

(١) رواه مسلم (٢٦٣٥)، وأحمد (١٠٣٣١)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤٥).

(٢) شرح صحيح مسلم: (١٦ / ١٨٢).

الحديث السادس والثلاثون

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: ٤٨] فَأَيُّنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «عَلَى الصَّرَاطِ»^(١).

اختلف أهل التفسير في المراد بتبديل الأرض والسماوات، فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد: تبديل أوصافهما، فتبديل الأرض يعني "تغييرها من هيئة إلى هيئة، وهي تسيير جبالها، وطم أنهارها، وتسوية أوديتها وقطع أشجارها، وجعلها قاعًا صفصفًا، وتبديل السماوات: تغيير حالها بتكوين شمسها، وخسوف قمرها وانتثار نجومها، وكونها مرة كالدهان، ومرة كالمهل"^(٢).

وذهب آخرون إلى أن المراد تبديل ذواتهما بأرض وسماوات أخر، ويبدو أن هذا ما فهمته السيدة عائشة رضي الله عنها من الآية، أن التبديل تغيير الذات، ولهذا سألت: فأين يكون الناس يومئذ، أي: عند تبديل الأرض؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "على الصراط".

والصراط هو جسر أو قنطرة على النار، يعبر من فوقها الناس إلى الجنة على حسب أعمالهم، وفي الحديث: إثبات المعاد والصراط، نسأل الله السداد.

(١) رواه مسلم (٢٧٩١)، والترمذي (٣١٢١)، وابن ماجه (٤٢٧٩)، وأحمد (٢٤٠٦٩).

(٢) تفسير البغوي: (٤ / ٣٦٢).

الحديث السابع والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ تَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ، لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَاتَّكُمُ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانَنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمَّتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلَ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوقِفُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرِّدُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً مِنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ: أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيَصُبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قَبْلَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي دُكَاؤُهَا، فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ، رَأَى بِهَجَّتِهَا، سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ قَدَّمَنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْغُهْوَدَ وَالْمِيثَاقَ، أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا أَكُونُ أَشَقَى خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَيُعْطِي رَبُّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَقْدُمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا، فَرَأَى زَهْرَتَهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ وَالسَّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ

أَدْخَلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَعْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْغُهْوَ وَالْمِثَاقَ، أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خُلُقِكَ، فَيَضْحَكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذُنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يُدَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: لَكَ ذَلِكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَمْ أَحْفَظْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَوْلَهُ: «لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «دُخُولُكَ لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "هل تمارون" أي: هل تشكون، وفي بعض طرق الحديث: "هل تضارون"، والمعنى: أنكم سترون الله عز وجل في وضوح تام، ودون أن تضركم هذه الرؤية، كما ترون الشمس في وضوح النهار مضيئة في وقت الظهيرة، ليس بينكم وبينها سحب، وكما ترون القمر بالليل ليلة اكتماله بدرًا مضيئًا في وضوح تام، والتشبيه هنا في الوضوح وزوال الشك، لا تشبيه للخالق بالمخلوق، سبحانه.

وقوله: "كلايب مثل شوك السعدان"، الكلايب جمع كُلاب، وهو آلة حديدية معقوفة، يتناول بها الحداد الحديد من النار، والسعدان: نبات ذو شوك، وقوله: "منهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل" يعني: منهم من يهلك، ومنهم من تقطعه كلايب جهنم قطعًا صغيرة كالخردل، وقوله: "قد امتحشوا" يعني: احترقوا واسودُّوا من الاحتراق، وقوله: "كما تتبت الحبة في حميل السيل" يعني: كما ينبت النبات فيما يحمله السيل من طين ونحوه، شبَّههم بذلك لأنه أسرع في الإنبات، وقوله: "قد قشبنى ريحها" يعني: يعني أهلكني وأحرقني، و"ذكاؤها": لهيبها وشدة اشتعالها. ولفظه "ويحك" كلمة رحمة تقال عند العجب والاستكار، وقوله: "فيضحك الله عز

(١) رواه البخاري (٨٠٦) ومواضع، ومسلم (١٨٢).

وجل منه" نؤمن بها بلا كيف كشأن جميع الصفات، ولا نتكلف تأويلها، ولا نشبهها بصفات المخلوقين، إيماناً بأن الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١].

وللحديث طريق أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، زاد فيها أشياء كثيرة على حديث أبي هريرة، منها: أن الأمم تقول يوم المحشر: «عَظِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسَارُّ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَساقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَقَاجِرٍ»، ومنها: أن الله تعالى يتجلى لعباده «فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَغْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَنْ اللَّهَ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءَ وَرِيَاءٍ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ»^(١).

وفي حديث أبي سعيد أيضاً زيادة في صفة الصراط، أنه «دَحَضَ مَزْلَةً، فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَالِإِبِ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شَوْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّغْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرَفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ». "دحض مزلة" بمعنى واحد: وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر، والحسك: شوك صلب من الحديد، و"أجاويد الخيل والركاب" أي: الجيد السريع في الجري من الخيل والإبل، و"مخدوش مرسل" يعني: من يصيبه خدوش من الخطاطيف والحسك أثناء مروره، فيعبر الصراط بصعوبة شديدة، و"مكدوس في النار" يعني: يسقط فيها بوجهه، نسأل الله السلامة والعافية.

وكذلك خالف أبو سعيد الخدري أبا هريرة رضي الله عنهما في ختام الحديث، في مقدار الثواب الذي يناله آخر أهل النار دخولاً الجنة، ففي رواية أبي سعيد: "لك ذلك، وعشرة أمثاله"، وفي رواية أبي هريرة: "لك ذلك، ومثله معه"، قال الحافظ:

(١) رواه البخاري (٤٥٨١) مختصراً ومرفقاً، ورواه مسلم (١٨٣) مطولاً.

"وَجَمَعَ عِيَاضُ بْنُ حَدِيثِي أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ بِاحْتِمَالٍ: أَنْ يَكُونَ أَبُو هُرَيْرَةَ سَمِعَ أَوَّلًا قَوْلَهُ: وَمِثْلَهُ مَعَهُ، فَحَدَّثَ بِهِ، ثُمَّ حَدَّثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالزِّيَادَةِ، فَسَمِعَهُ أَبُو سَعِيدٍ، وَعَلَى هَذَا فَيُقَالُ: سَمِعَهُ أَبُو سَعِيدٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ مَعًا أَوَّلًا، ثُمَّ سَمِعَ أَبُو سَعِيدٍ الزِّيَادَةَ بَعْدَ"^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحشر والصراط، ورؤية المؤمنين ربهم عز وجل، وفيه بعض أحداث وأهوال يوم القيامة، وسعة رحمة الله تعالى وعفوه، نسأل الله العفو والعافية.

(١) فتح الباري: (١١ / ٤٦١).

الحديث الثامن والثلاثون

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُغُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سِجْلًا، كُلُّ سِجْلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كِتَابَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَرَنَّاكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجَلَاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ»، قَالَ: «فَتَوْضَعُ السِّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجَلَاتُ وَتَقُلَّتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "سيخلص رجلاً" أي: سيميز ويختار رجلاً ينادى عليه ليحاسب، وقوله: "تسعة وتسعين سجلاً" أي: كتب وصحائف أعماله السيئة التي كان يعمل بها في الدنيا، والبطاقة: الصحيفة الصغيرة، فهي صغيرة في حجمها مقارنة بالسجلات، لكن مقدارها عظيم بحيث رجحت وثقلت على السجلات.

وقوله: "ولا يثقل مع اسم الله شيء"، أي: إن ثقل كلمة التوحيد أكبر وأعظم من أن يبلغها ويساويها شيء في الميزان، والتوحيد لا يقاومه شيء من المعاصي، بل يترجح ذكر الله تعالى وتوحيده على جميع المعاصي، قال ابن تيمية رحمه الله: "فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتاً عظيماً"^(٢).

ويستفاد من الحديث: إثبات المعاد والميزان، وأنه ميزان له كفتان توضع الحسنات في إحداهما، والسيئات في الأخرى، وأن الله تعالى يجسم الأفعال والأقوال لتوزن،

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤).

(٢) الزهد والورع والعبادة: (١ / ١٦٤)

فنتقل الطاعات وتطيش السيئات، وذلك لنقل العبادة على النفس وخفة المعصية
عليها، نسأل الله العلي القدير أن يتقل موازيننا.

الحديث التاسع والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُجَسَّبُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُنْزِلَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، قَوْلَاؤِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "يخلص المؤمنون من النار" يعني: بعد أن يتجاوزوا الصراط الممتد فوق النار والعياذ بالله تعالى، وكل منهم يتجاوزوه حسب عمله، ثم توقفهم الملائكة على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص المظلوم من ظالمه حقه الذي اعتدى عليه في الدنيا، وهذا إذا كان كلاهما مؤمن وقسم له دخول الجنة، وهذه المقاصة للقوم الذين لا تستغرق مظالمهم جميع حسناتهم، حتى إذا طهروا وتخلصوا من حقوق الناس أدخلوا الجنة، قال ابن تيمية رحمه الله: "فالنفس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء، فإن ذلك موجب للفساد، أو غير ممكن، بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت، حتى تصلح لسكنى الجنة"^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: "فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهدَّبون وينفَّون من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هذبوا ونُقوا أُنْزِلَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ"^(٣)، نسأل الله العليّ القدير أن

(١) رواه البخاري (٦٥٣٥)، وأحمد (١١٠٩٥).

(٢) الحسنة والسيئة: ص (١٠١).

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١ / ٥٦).

يجعلنا من أهلها.

ويقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أعرف بمنزلهم في الجنة من أهل الدنيا بمنزلهم، وقد عرفوا منازلهم في الجنة بتكرير عرضها عليهم بالغداة والعشي وهم في قبورهم.

ويؤخذ من الحديث: إثبات المعاد والصراف والقنطرة، والجنة والنار، وتحريم الظلم، والتحذير منه، والتأكيد على رد الحقوق إلى أصحابها، وأنه ما من أحد سيدخل الجنة وفي عنقه حق لأحد من الناس، والله المستعان.

الحديث الأربعون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيَنَادِي مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَهُ، ثُمَّ يَنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَهُ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنذَرُهم يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩] ^(١).

الموت مخلوق من مخلوقات الله جل وعلا، {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢]، وذلك الموت يصور يوم القيامة كهيئة "كَبْشٍ أَمْلَحَ"، أي: فيه بياض وسواد، لكن سواده أقل، فيوقف على السور الذي بين الجنة والنار، فينادي على أهلها، فيشربون: أي يمدون أعناقهم ويرفعون رؤوسهم لينظروا إليه، ويعرفون أنه الموت، فيذبح أمام أنظارهم، وهذا على الحقيقة لا المجاز، قال ابن القيم رحمه الله: "إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَنْشِئُ مِنَ الْمَوْتِ صُورَةَ كَبْشٍ يَذْبَحُ، كَمَا يَنْشِئُ مِنَ الْأَعْمَالِ صُورًا مَعَايِنَةً يَثَابُ بِهَا وَيَعَاقِبُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْشِئُ مِنَ الْأَعْرَاضِ أَجْسَامًا تَكُونُ الْأَعْرَاضُ مَادَّةَ لَهَا، وَيَنْشِئُ مِنَ الْأَجْسَامِ أَعْرَاضًا، كَمَا يَنْشِئُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْأَعْرَاضِ أَعْرَاضًا، وَمِنَ الْأَجْسَامِ أَجْسَامًا، فَالْأَقْسَامُ الْأَرْبَعَةُ مُمَكِّنَةٌ مَقْدُورُهُ لِلرَّبِّ تَعَالَى" ^(٢).

قلت: وهذا فيه زيادة في نعيم المؤمنين، لأنهم سيعرفون أنهم في نعيم باقٍ لن يزول بموت آخر، {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [الدخان: ٥٦]، وفيه نكاية في الكافرين، لأنهم سيدركون حينئذ أن عذابهم لن ينقطع، {لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ص (٤٠١).

فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ { [فاطر: ٣٦]، وهذا التأنيـد يختص بالكافرين فحسب، لا أهل التوحيد، نسأل الله العافية.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجنة والنار، وأن نعيم الجنة دائم لا ينقطع، والخلود في النار للكافرين، والتحذير من يوم القيامة وأهواله، وحث المؤمنين على الاستعداد له.

أسأل الله العلي القدير أن يرزقنا رضاه والجنة، وأن يعيـذنا من سخطه والنار، وأن يظـلنا بظله يوم لا ظل إلا ظله، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثالث

بعض ما جاء من الأخبار في وصف الجنة والنار

أما بعد:

فإن الإيمان بالجنة والنار أحد أعظم مسائل الإيمان باليوم الآخر، فكلتاها دار الجزاء والمستقر، ولذا اعتنى القرآن الكريم والسنة المطهرة بوصف نعيم الجنة، وبيان شدة عذاب النار، ليعمل العاملون لنيل هذا النعيم الخالص، والنجاة من هذا العذاب الأليم، كما قال جل شأنه: {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥]، فيشمر المشمرون للإكثار من الطاعات، ويرتدع كل من كان له قلب واعٍ عن المعاصي والآثام.

وقد جمعت في هذا القسم طائفة مختارة من الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة، التي تتناول وصف الجنة والنار، لحض المؤمنين على الاستعداد للآخرة، وتعميق الشعور برقابة الله تعالى، وتعزيز الرجاء في رحمته، وردع الغافلين عن الانخراط والانغماس في المعصية، وتعزيز الخوف من عقاب الله جل وعلا، ليكونوا من الذين {يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء: ٥٧].

أسأل الله تعالى أن يعيذنا وإياكم من حر عذابه، وأن يجعلنا وإياكم من أهل جنته ورضوانه، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحديث الأول

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»^(١).

وصح أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "حُجِبَتِ" أي: سُئِرَتْ وَغُطِّيَتْ، أما قوله: "حُفَّتِ" أي: أُحِيطَتْ، نحو قول الله تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} [الزمر: ٧٥]، "حَافِّينَ" أي: مُحَدِّقِينَ مُحِيطِينَ بِالْعَرْشِ، مطيفين بحوافيه، أي: بجوانبه^(٣).

وقوله: "بالشهوات" أي: بالملذات التي منع الشرع من تعاطيها، وهي حظوظ النفس التي تهفو الغرائز إليها من متع الدنيا كالمال والنساء ونحوهما، وأما "المكاره" فالمراد بها: المشاق التي تستلزمها الطاعات وترك المحرمات، مثل مجافاة النوم لقيام الليل، والوضوء في الطقس البارد، والإمساك عن الطعام والشراب والجماع نهراً بنية الصوم، والسعي والطواف بالبيت في الحج والعمرة، والجهاد وقتال العدو، بر الوالدين خاصة في كبرهما، وكظم الغيظ، وإنظار المعسر، ونحو ذلك من الأمور التي تشق على النفس.

والمقصود: أن الجنة محاطة بكثير من المكاره والمشاق التي يتطلب الأمر اجتيازها للوصول إليها، والنار محاطة ومحجوبة بكثير من الملذات التي حرمها الله تعالى، ويتطلب الأمر الصدور عنها، ومغالبة النفس لتحاشي الوقوع فيها، قال النووي رحمه الله: "وكذلك هما محجوبتان بهما، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب

(١) رواه البخاري (٦٤٨٧)، وأحمد (٧٥٣٠)

(٢) رواه مسلم (٢٨٢٢)، والترمذي (٢٥٥٩)، وأحمد (١٢٥٥٩).

(٣) تفسير البغوي "معالم التنزيل": (٧ / ١٣٤).

الشهوات" ^(١)، نسأل الله السداد.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، والجنة والنار، والتحذير من اتباع الشهوات، والحض على الطاعة والصبر على مشاقها، والله المستعان.

(١) شرح صحيح مسلم: (١٧/١٦٥).

الحديث الثاني

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "بأنعم أهل الدنيا"، أي: أكثر أهل الدنيا تنعمًا وترفًا في بدنه وثيابه وأهله وسكنه ومركبه وغير ذلك، وقوله: "فيصبغ في النار صبغة" أي: يُغمَس فيها غمسة واحدة، كما تغمس اليد في الماء، أو كما تغمس اللقمة في الإناء عند الأكل، وقوله: "لا والله يا رب" نفي مؤكد بالقسم، حيث تنسيه تلك الغمسة الواحدة كل نعيم ذاقه في الدنيا، مهما طال عمره في نعيم الدنيا، ومهما تمتع بملذاتها وشهواتها، هذا من غمسة واحدة، فكيف بمن هو خالد مخلد في النار أبد الأبد؟ نسأل الله السلامة والعافية.

وعلى نقيض ذلك، يؤتى بأشد الناس بُؤْسًا في الدنيا، في بدنه وماله وأهله وغير ذلك، فيغمس في النعيم غمسة واحدة، فيقسم أنه لم يرَ في حياته الدنيوية بُؤْسًا قط، لأن تلك الغمسة تنسيه بُؤس الدنيا وشقاءها وتعاستها بالكلية.

وفي الحديث: بيان حقارة الدنيا وما فيها من نعيم وبؤس إلى جنب الآخرة، وفيه أيضًا: بيان شدة العذاب في النار، وكثرة النعيم وطيبه في الجنة، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها، والله الموفق والمستعان.

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧)، وابن ماجه (٤٣٢١)، وأحمد (١٣١١٢).

الحديث الثالث

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى صَلَاةَ الْكُسُوفِ، فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَأَطَالَ السُّجُودَ، ثُمَّ رَفَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَأَطَالَ السُّجُودَ، ثُمَّ قَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ، فَسَجَدَ، فَأَطَالَ السُّجُودَ، ثُمَّ رَفَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَأَطَالَ السُّجُودَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَالَ: «قَدْ دَنَتْ مِنِّي الْجَنَّةُ، حَتَّى لَوْ اجْتَرَأْتُ عَلَيْهَا، لَجِئْتُكُمْ بِقُطَافٍ مِنْ قُطَافِهَا، وَدَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ: أَيُّ رَبِّ، وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ، قُلْتُ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، لَا أَطْعَمْتُهَا، وَلَا أَرْسَلْتُهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشِيشٍ - أَوْ خَشَّاشٍ - الْأَرْضِ»^(١).

يبين الحديث صفة صلاة الكسوف، وهي صلاة ذات هيئة مخصوصة، تُشرع عند احتجاب نور الشمس أو القمر، وتؤدي ركعتين بلا أذان ولا إقامة، وفي كل ركعة منهما قيامان مع القراءة، وركوعان، مع التطويل في كل ركن من أركانها، وهي سنة مؤكدة. وقوله صلى الله عليه وسلم: "دنت مني الجنة"، أي: قربت منه، أو عرضت أمامه ظاهرة، ورآها رأي العين، والقطاف: هو العنقود من عناقيد العنب ونحوه، ويطلق على كل ما يُقطف من الثمر، وقوله: "لو اجتأرت عليها" معناه: أنه لم يكن مأذونًا له بالأخذ منها، وفيه دلالة على قربها الشديد منه صلى الله عليه وسلم، وقوله: "أي رب، وأنا معهم": استفهام لاستعطافه تعالى لإبعاده عن النار، و"خشاش الأرض": حشراتنا.

وفي الحديث: معجزة له صلى الله عليه وسلم إذ تكشفت له الجنة والنار عن قرب، فراهما رأي العين، كما جاء في طريق أخرى لهذا الخبر، ترويه أم المؤمنين

(١) رواه البخاري (٧٤٥)، وابن ماجه (١٢٦٥)، وأحمد (٢٦٩٦٣)، ورواه مسلم مختصرًا دون ذكر الجنة والنار (٩٠٦).

عائشة رضي الله عنها: أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وَعِدَّتُهُ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُ أُرِيدُ أَنْ أَخَذَ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ، حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أَتَقَدَّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ»^(١).. الحديث.

وفيها زيادة: أن النبي صلى الله عليه وسلم تقدم للأمام حين رأى الجنة، ثم تأخر حين رأى النار، والعياذ بالله تعالى.

وفي الحديث أيضًا: أن الجنة والنار قد خلقتا بالفعل، وهما موجودتان الآن، قال تعالى عن الجنة: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣]، وعن النار: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٤]، والأدلة من السنة على هذا كثيرة جدًا، وفيه: التحذير الشديد من تعذيب الحيوان الضعيف، وأن ذلك قد يترتب عليه استحقاق العذاب في النار، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) رواه البخاري (١٢١٢) ومواضع، ومسلم (٩٠١).

الحديث الرابع

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١).

أهل الذمة: هم أهل الكتاب الموادعون، الذين بينهم وبين المسلمين عهد، وريح الجنة: الرائحة الطيبة والذكية التي تفوح من الجنة وتنتشر منها، وقد وقع في هذا الخبر أن ريح الجنة ينتشر إلى مسافة بعيدة تقدر بمسيرة أربعين عامًا، بينما أخرج النسائي بسند صحيح عن رجل من أصحاب النبي، أنه صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا»^(٢)، لا أربعين، وجهالة الصحابي هنا لا تضر، لأن الصحابة رضوان الله عليهم كلهم عدول، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»^(٣).

فالمراد من ذلك كله: أن رائحة الجنة تنتشر إلى مسافات بعيدة جدًا، تتفاوت بحسب اختلاف الأشخاص والأعمال، وتفاوت الدرجات. أو ربما كان المراد: بيان طول المسافة وبعدها، وليس التحديد مقصودًا بذاته، وإنما خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم بحسب عقولهم. وفي الحديث: التحذير من خيانة العهود مع غير المسلمين، وبيان عظم الجنة، حتى أن ريحها ينتشر ويمتد إلى مسافات بعيدة جدًا، نسأل الله أن يبلغنا جنته.

(١) رواه البخاري (٣١٦٦)، والنسائي (٤٧٥٠)، وابن ماجه (٢٦٨٦)، وأحمد (٦٧٤٥).

(٢) رواه النسائي (٤٧٤٩)، وأحمد (١٦٥٩٠).

(٤) رواه مسلم (٢١٢٨)، ومالك (٧)، وابن حبان (٧٤٦١).

الحديث الخامس

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجُودَ هَذِهِ، فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودُ، فَتَنَزَّرْتُ، فَإِذَا عُمَرُ، قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جِئْتَ آتِفًا، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُتْلِغُ - أَوْ فَيَسْبِغُ - الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(١).

هذا الحديث يرويه صحابيٌّ عن صحابيٍّ، سمع الأول منهما جزءًا، وأتم له الآخر جزءًا آخر قد فاتته قبل حضوره، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، فالأول هو عقبة بن عامر رضي الله عنه، الذي انشغل برعاية الإبل في مرعى لها خارج المدينة، وعاد بها آخر النهار، وكانوا يضمنون إبلهم إلى بعضها البعض، ويتناوبون على رعايتها، كلٌّ له دور.

ثم لحق عقبة بالنبي صلى الله عليه وسلم حريصًا على السماع منه، فلما أتى إليه سمع جزءًا من حديثه فأعجبه، ومفاده: أنه ما من مسلم - رجلًا كان أو امرأة - يتوضأ فيحسن وضوءه، ويعطي كل عضو حقه من الماء، ثم يقوم فيصلي ركعتين، وهو مقبل عليهما بقلبه ووجهه، أي: وهو خاشع مخلص فيهما لله تعالى، وهذا هو الإقبال بالقلب، غير ملتفت لغير موضع السجود، وهذا هو الإقبال بالوجه، فمن فعل ذلك وجبت له الجنة، فلما سمع هذا من النبي صلى الله عليه وسلم أعجبه ما سمع، وقال: "ما أجود هذه!"، يعني ما أطيبها لأنها جمعت بين سهولة العمل وعظم الأجر.

فلما رآه الفاروق عمر بن الخطاب وسمع ما قاله، بشره بكلمة أخرى فاتته قبل

(١) رواه مسلم (٢٣٤)، والنسائي (١٤٨)، والترمذي (٥٥)، وابن ماجه (٤٧٠).

مجيئه، فقال له: التي قبلها أجود وأطيب، وأتم له جزءًا من الحديث قيل قبل قدومه، ومفاده: أنه ما من مسلم يسبغ الوضوء، أي: يتمه ويعطي كل عضو حقه من الماء، ثم يقول بعد الانتهاء منه: "أشهد أن لا إله إلا الله"، أي: لا معبود بحق إلا الله، "وأن محمدًا عبد الله ورسوله"، وهذه شهادة برسالته صلى الله عليه وسلم من الله وأنه مبلغ وحيه، إلا كان جزاء ذلك أن تفتح له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء. وقد وردت زيادة عليها عند الترمذي: "اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ"، فما أعظم الجزاء! وما أيسر العمل! والله الموفق.

والجزء الأول من حديث عقبة جمع بين الوضوء وصلاة ركعتين، وهذا جزاؤه الجنة، بينما الجزء الثاني الذي سمعه الفاروق رضي الله عنه جمع بين الوضوء وذكر مخصوص به، وله نفس الجزاء مع زيادة: فتح جميع أبواب الجنة له، دون تخصيص باب واحد.

ويستفاد من الحديث: أن للجنة أبوابًا عددها ثمانية، بينما ثبت بنص القرآن الكريم أن جهنم لها سبعة أبواب فحسب، قال الله تعالى: {وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} [الحجر: ٤٣، ٤٤]، نسأل الله العافية. وفي الحديث أيضًا: فضل الوضوء والذكر الوارد فيه، وإثبات سنة صلاة ركعتين بعده وبيان فضلها، والحرص على طلب العلم ونشره، واستحباب البشارة لمن يرجى له أن ينتفع بها، وفضل التعاون على أمور الدنيا والآخرة، الإخلاص لله تعالى في الذكر والعبادة إجمالاً، والله الموفق.

الحديث السادس

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الزِّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَيُّ أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١).

في الحديث بيان لأبواب الجنة، أن كل باب منها مخصص لفئة من المؤمنين بحسب ما قدموا من الطاعات، وقوله: "من أنفق زوجين" يعني: من تصدق بعدد اثنين من أي شيء كان صنفين، كبقرتين، أو درهمين، أو رغيفين، أو ثوبين، وقال بعض أهل العلم: يحتمل أن المراد بزوجين: الإنفاق مرة بعد أخرى، بحيث يكون الإنفاق عادة له، وقوله: "يا عبد الله، هذا خير"، يعني: هذا خير عظيم قد قدمته في دنياك، أو يحتمل أن يكون المعنى: هنا خير عظيم ينتظرك حين تدخل، والله أعلم، ومناداة العبد باسمه تشريف له.

أما قول أبي بكر رضي الله عنه: "ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة"، فاختلّفوا في معناه، فقليل: ضرورة بمعنى الضرر أو المضرة، والمراد: ليس على من يدعى من تلك الأبواب من مضرة، أي: قد سعد من دُعِيَ من الأبواب جميعاً، فإذا دُعِيَ منها جميعاً له أن يُخَيَّرَ في الدخول من أيها شاء.

وقيل: بل المراد: أن من دُعِيَ من باب واحد من تلك الأبواب ليست له حاجة إلى أن يدعى من أبواب آخر، إذ الباب الواحد يكفي لدخوله الجنة، والله أعلم. وجواب النبي صلى الله عليه وسلم على الصديق رضي عنه يقطع بأن من عباد

(١) رواه البخاري (١٨٩٧) وموضع، ومسلم (١٠٢٧).

الله المؤمنين الطائعين من يستحق الدخول من تلك الأبواب جميعها، وذلك إذا كان حريصًا على الطاعات بأنواعها، لكثرة عباداته وتنوعها واختلافها، فهو يحافظ على الصلوات فرضًا ونفلًا، وكذا الصيام، والصدقة، والجهد في سبيل الله، وغير ذلك من الطاعات، بتوفيق الله جل وعلا.

وفي الحديث: إثبات أن للجنة أبوابًا كما في الحديث السابق، وأن تلك الأبواب كل منها مخصص لفئة من المؤمنين بحسب ما واطبوا عليه واجتهدوا فيه من الطاعات، وكل باب من هذه الأبواب يسمى بالعبادة المخصص لها، غير الصوم فإن بابه يسمى بالريان، من الري وهو نقيض العطش، فكأن الصائم يجازي على الظم الذي لحقه في دنياه بطاعته بالري في الآخرة.

وفي الحديث أيضًا: فضل الجمع بين خصال الخير كلها، أو معظمها، والإقبال على الطاعات وتتويعها، وفيه فضيلة ظاهرة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، واستتبط منه أهل العلم: جواز مدح الإنسان في وجهه إذا لم يُخشَ عليه الافتتان بهذا المدح، والله الموفق.

الحديث السابع

عن خالد بن عمير العدوي، قال: حَظَبْنَا عُثْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنْتَ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَاءً، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، يَتَصَابُهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْقَلِبُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرٍ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُقْلَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَوَاللَّهِ لَتُثْمَلَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ؟ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَطَيْظٍ مِنَ الرَّحَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا، وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوءَةً قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا، فَسَتَخْبِرُونَ وَتُحْزَبُونَ الْأُمَرَاءَ بَعْدَنَا»^(١).

وهذا حديث موقوف على الصحابي الجليل عتبة بن غزوان المازني، حليف بني عبد شمس، من السابقين الأولين في الإسلام، وشهد بدرًا وكان من الرماة المذكورين، وكان عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على البصرة، رضي الله عنه وأرضاه.

وقوله: «إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنْتَ بِصَرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَاءً» يعني: أعلمت بقرب بزوالها، وأسرعت بالفناء، أو ذهبت مسرعة كالإنسان الذي يفر هاربًا ولا يلتفت وراءه، وهذا كناية عن قرب زوال الدنيا، وقوله: «لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ»، الصبابة: هي البقية اليسيرة، أو القطرات القليلة المتبقية في قاع الإناء، والمعنى: أن ما تبقى من عمر الدنيا قليل مثل القطرات القليلة التي يحاول الإنسان أن يستجمعها

(١) رواه مسلم (٢٩٦٧)، والترمذي (٢٥٧٥)، وأحمد (١٧٥٧٥).

في قاع الإناء ليشربها، كناية عن قصر العمر، وسرعة انقضاء ما بقي منه، وأما الدار التي لا زوال منها: فهي الدار الآخرة، وقوله: "فانتقلوا بخير ما بحضرتكم" أي: قدموا خير ما تملكون استعدادًا للآخرة، وأكثروا من الطاعات والصالحات.

وقوله: "فإنه قد ذكر لنا: أن الحجر يلقى من شفة جهنم، فيهوي فيها سبعين عامًا، لا يدرك لها قعرًا"، هذا وصف لعمق وسعة قاع جهنم أعادنا الله وإياكم، وهو وصف لا يقال بالرأي، فإنما هو سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، أو ممن سمعه منه من أصحابه الملازمين له، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتناوبون في طلب العلم، وكانوا يحدث بعضهم بعضًا بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله: "والله لتملأن، أفعجبتكم؟" أي: بالرغم من سعة جهنم وعمق قاعها فإنها ستمتلئ من الجن والإنس ممن حق عليهم العذاب، نسأل الله العافية، فلا تعجبوا من هذا الأمر الدال على عظم قدرة الله سبحانه وكمال جلاله وقوة انتقامه، فإنه لا بد من وقوعه.

ثم انتقل إلى وصف الجنة فقال: "ولقد ذكر لنا: أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة"، وهذا أيضًا مما لا يقال بالرأي، وفيه دلالة على عظم أبواب الجنة واتساعها الشديد، وبالرغم من هذا الاتساع فإنها ستمتلئ هي الأخرى بالمؤمنين الذين من الله عليهم برحمته وقضى لهم بالجنة، نسأل الله أن يجعلنا منهم، حتى إنها سيأتي عليها يوم وهي تزدهم بالناس، والحمد لله رب العالمين.

ثم ذكر من تغير أحوال الدنيا، وكيف كانوا في بداية الإسلام لا يجدون الزاد ولا الكساء، ثم بسطت لهم الدنيا فأصبحوا أمراء على البلاد، مع ظهور الإسلام وانتشاره وكثرة الفتوحات، أما قوله: "لم تكن نبوة قط إلا تناسخت، حتى يكون آخر عاقبتها ملكًا" فمعناه: أن هدي النبوة وما يكون عليه الناس في أول الأمر لا محالة يزول ويرتفع ويبتعد الناس عن سنن الأنبياء وهدْيهم، ويتبعون سنن ملوكهم وأمرائهم، فلا يعملون بالشرع، ولا يقومون بالحق، وتجري بهم الأهواء، حتى لا يبق إلا الغرياء من

الناس مستمسكين بهدي النبوة الأصل، ومنابع الدين الأولى، والله الأمر من قبل ومن بعد.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجنة والنار، وسعة كل منهما، وأن كلاً منهما ستمتلى بأهلها، فيه بيان صفة أبواب الجنة، وأنها من السعة بحيث يكون بين مصراعيها مسافة طويلة جداً تقدر بمسيرة أربعين عاماً، وقد جاء في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَّصَارِعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»^(١)، وفي لفظ آخر: «كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمَيْرَ». وفيه كذلك: عمق قاع النار ويعد غورها، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

الحديث الثامن

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَذَرُونَ مَا هَذَا؟»، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»^(١).

الوجبة - بسكون الجيم - : صوت سقوط من علو إلى أسفل مع الارتطام بالقاع، يخبر الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه أنهم سمعوا مثل هذا الصوت أثناء اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، فسألهم إن كانوا يميزون هذا الصوت، فقالوا: الله ورسوله أعلم، فأوضح لهم الأمر: أنه صوت حجر ألقي في جهنم منذ سبعين سنة، حتى بلغ قعرها الآن، وهذا يدل على أن النار قد خلقت بالفعل، وأنها موجودة الآن، ويدل أيضًا على عظم خلقها وعمق قعرها، أعادنا الله تعالى منها.

(١) رواه مسلم (٢٨٤٤)، وأحمد (٨٨٣٩)، ابن حبان (٧٤٦٩).

الحديث التاسع

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: «{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} [الزمر: ٧٣] حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَجَدُوا عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ سَاقِهَا عِثَانٍ فَيَأْتُونَ إِحْدَاهُمَا كَأَنَّمَا أَمَرُوا بِهَا فَيَتَطَهَّرُونَ فِيهَا، فَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، قَالَ: فَلَا تَتَغَبَّرُ آبْشَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَا تُشَعِّثُ شُعُورُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، كَأَنَّمَا دَهَنُوا، قَالَ: ثُمَّ يَعْمِدُونَ إِلَى الْأُخْرَى، فَيَشْرَبُونَ مِنْهَا فَتَذْهَبُ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ أَدَى وَقَذَى، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْنُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ} [الزمر: ٧٣] قَالَ: وَيَتَلَقَّى كُلُّ غِلْمَانٍ صَاحِبَهُمْ يُطِيفُونَ بِهِ فَعَلَّ الْوِلْدَانَ بِالْحَمِيمِ يَقْدُمُ مِنَ الْغِيَّةِ، يَقُولُونَ: أَبْشِرْ قَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ كَذَا، وَيَسْبِقُ غِلْمَانٌ مِنْ غِلْمَانِهِ إِلَى أَرْوَاحِهِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فَيَقُولُونَ: هَذَا فُلَانٌ بِاسْمِهِ فِي الدُّنْيَا قَدْ أَتَاكَ، قَالَ: فَيَقُلْنَ: أَنْتُمْ رَأَيْتُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَسْتَحْفَفُهُنَّ الْفَرْحُ حَتَّى يَخْرُجْنَ إِلَى أَسْكفَةِ الْبَابِ، قَالَ: وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَإِذَا نَمَارِقُ مَصْصُوفَةٌ، وَأَكْوَابُ مَوْضُوعَةٌ، وَرَزَابِيُّ مَبْنُوثَةٌ، فَيَنْكِئُ عَلَى أَرِيكَةٍ مِنْ أَرَاكِيهِ، قَالَ: فَيَنْظُرُ إِلَى تَأْسِيسِ بُنْيَانِهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ أُسِّسَ عَلَى جَنْدَلِ اللَّوْلُوِّ بَيْنَ أَصْفَرٍ وَأَحْمَرَ وَأَخْضَرَ وَمِنْ كُلِّ لَوْنٍ، قَالَ: ثُمَّ يَرْفَعُ طَرَفَهُ إِلَى سَفَفِهِ فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَهُ لَهُ لَأَلَمَ بَصَرُهُ أَنْ يَذْهَبَ بِالْبَرْقِ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} [الأعراف: ٤٣]»^(١).

هذه الحديث موقوف على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومثله لا يقال بالرأي، وقوله الله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} [الزمر: ٧٣]، الزمر: الجماعات المتفرقة يتبع بعضها بعضًا، قال ابن كثير: "أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣٤٠٠٤)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢٦٤٦)، وابن أبي حاتم (١٤٨٠/٥)، وابن المبارك في الزهد (١٤٥٠)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٢٨٠).

طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تتناسب بعضها بعضاً^(١).

وقوله: "فلا تتغبر أبشارهم بعدها أبداً، ولا تشعث شعورهم بعدها أبداً"، الأبخار: جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد، والمعنى أن جلودهم لا يعلوها غبار ولا يتغير لونها بشحوب أو كدر، والشعث: هو تفرق الشعر وتشتته وتلبده نتيجة التعب أو الإهمال، وقوله: "كأنما دهنوا" أي: كأنما تطيبوا بأجود الطيب، وظهروا بأطيب هيئة ومظهر، وقوله: "فتذهب ما في بطونهم من الأذى والقذى"، الأذى: هو كل ما يسبب ضرراً أو مكروهاً في النفس أو البدن، مادياً كان أو معنوياً، والقذى: هو نوع محدد من الأذى الدقيق، ويُقصد به ما يسقط في العين أو الشراب من وسخ أو غبار أو شوائب.

والمقصود بالحديث: أن المؤمنين يساقون إلى الجنة برفق، فيدخلونها جماعة بعد جماعة بحسب ما قدموه لأنفسهم في الدنيا من العمل، فيأتون على شجرة عند مدخل الجنة ينبع من تحتها عينان، فيتطهرون من إحداها فتظهر عليهم النعمة، وتشيع في وجوههم النضرة، ويظهرون في أجمل هيئة، ثم يشربون من العين الأخرى فيخرج من بطونهم كل أذى لحق بهم في الدنيا، أو في قبورهم، وتتلقاهم الملائكة بالبشر والترحاب، وتخرج لاستقبالهن كذلك الحور العين على أعتاب القصور التي أعدت لهن، فيدخلون القصور فإذا بنمارق مصفوفة، وهي: الوسائد التي يتكأ عليها، منظومة بعضها جنب بعض، وأكواب موضوعة، يشربون بها من عيون الجنة وأنهارها وخمرها، وزرابي مبثوثة، وهي: البُسط والسجاد الفاخر ذو الوبر الناعم، مفروشة وموزعة تحت أقدامهم.

وقوله: "فينظر إلى تأسيس بنيانه" يعني: إلى ما صنع أو أسس منه القصر، فإذا

(١) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ١١٩).

بها مصنوع من جندل اللؤلؤ، أي الصخور العظيمة من اللؤلؤ الخالص، وله ألوان متعددة، ولهذه القصور سُفُفٌ عالية تلمع من الجمال والإشراق لمعاناً شديداً، فيقولون حين يرون هذا النعيم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} [الأعراف: ٤٣]، نسأل الله الهدى والتقى والتوفيق والسداد.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وبيان صفة الجنة، وما أعده الله جل وعلا لعباده المؤمنين، أهل السعادة والرضوان، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

الحديث العاشر

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُؤْنَهَا»^(١).

الزمام: هو ما يُشدُّ ويُربط به، والحديث يقرر أن جهنم يؤتى بها يوم القيامة ولها عدد هائل من الأزرمة تُسحب منها، وقد يكون العدد على ظاهره: سبعون ألف زمام، وقد يكون المراد التكاثر، والأخذ بظاهر الخبر أولى، لأنه لا يستحيل تصوُّره، ولا يوجد ما ينافي ظاهره، ومع كل زمام من هذه الأزرمة سبعون ألف ملك يسحبونها، ويقودونها ويسيطرون عليها، والله أعلم بكيفية ذلك، أعاذنا الله منها، ونفس المقال في العدد يعاد ها هنا، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وعظم خلق النار، أعاذنا الله تعالى منها، وفيه: التهيب من جهنم وما يؤدي إليها من قول وعمل، ببيان هول صفتها، حتى يرتدع كل من كان له قلب، والله المستعان.

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢)، والترمذي (٢٥٧٣)، والطبراني (١٠٤٢٨)، والحاكم (٨٧٥٨).

الحديث الحادي عشر

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْجَوَادَ الْمُضْمَرَّ السَّرِيعَ، مِائَةً عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا»^(١)، وفي بعض طرقه: وَقَالَ: «ذَلِكَ الظِّلُّ الْمَمْدُودُ».

الجواد المضمَر: هو الذي ضَمُرَ، أي: قل شحمه، واشتد لحمه، وخَفَّتْ حركته، وذلك لتدريبه وتجهيزه ليشتد جريه في السباق والجهاد، والشجرة: قيل هي طوبى، وقيل: سدرة المنتهى، وقيل: شجرة الخلد، والله أعلم، وقوله: "لا يقطعها" أي: لا يصل إلى نهايتها مع سيره هذه المدة، دلالة على امتداد ظلها، وفي الحديث إشارة لقول الله تعالى: {وِظِلٌّ مَّمْدُودٌ} [الواقعة: ٣٠].

قال أهل العلم: الجنة لا شمس فيها، لقوله تعالى: {مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} [الإنسان: ١٣]، وهذا يترتب عليه إشكال: إذ كيف يكون في الجنة ظل دون أن يكون بها شمس؟ ويجاب على هذا الإشكال بأنه ظل يخلقه الله تعالى لعباده السعداء ليتنعموا فيه، لا ليقهيم حر الشمس، فهو من جملة نعيم الجنة: {وَنُذْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء: ٥٧]، وعدم وجود شمس لا ينفي وجود مصادر أخرى للنور، إذ لا يُعقل أن تكون الجنة مظلمة معتمة.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وبيان سعة الجنة وعظمة نعيمها، والله الموفق.

(١) رواه مسلم (٢٨٢٨)، والترمذي (٢٥٢٤)، وأحمد (١١٦٧٣).

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقَدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَإِنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»^(١).

قوله: "جزء من سبعين جزءًا"، قد وقع في رواية في المسند: «هَذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ»^(٢)، فإن صحت هذه الرواية فلا يكون العدد مقصودًا بذاته، وإنما المراد به التهويل والتكثير، لكن أغلب الروايات نصت على العدد سبعين، إلا رواية ذكوان السمان، وقد وثقه ابن عيينة وأحمد والنسائي والعجلي، لكن قال ابن معين: حديثه ليس بحجة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: يخطئ، وذكر البخاري في تاريخه أنه كان لسهيل أخ فمات، فوجد عليه فنسي كثيرًا من الحديث، وذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه عن يحيى قال: لم يزل أهل الحديث يتقون حديثه، وذكر العقيلي عن يحيى أنه قال: هو صويلح وفيه لين، وقال الحاكم: عيب على مسلم إخراج حديثه^(٣). فالظاهر أن رواية السبعين هي المحفوظة، والعدد على حقيقته، والله تعالى أعلم، وأعادنا بفضلِهِ ورحمته من النار.

وقولهم: "إن كانت لكافية" يعني: أن نار الدنيا بمقدار حرها المعروف مجزئة لتعذيب العصاة، فلا حاجة للتعذيب بما هو أشد منها، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم تقرير أن نار جهنم تبلغ سبعين ضعفًا من حر نار الدنيا للرد على دعوى الكفاية والإجزاء، إذ لا بد من الزيادة ليطمئن ما يصدر من الخالق من العذاب على ما يصدر من خلقه، وجاء في بعض طرق الحديث: "فضلت عليهن" بنون الجمع، و"فضلت عليها" بالإنفراد، وفي حال الجمع يكون المراد: فَضَّلَتْ على نيران الدنيا، أما الإنفراد فواضح، نسأل الله العافية.

(١) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) انظر تهذيب التهذيب: (٤/ ٢٦٤).

(٣) رواه أحمد (٨٩٢١).

وفي الحديث: إثبات المعاد، وبيان صفة النار وشدة حرارتها، والتحذير من إتيان
الأعمال التي تؤدي إليها، والله المستعان.

الحديث الثالث عشر

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّقَرِ، نُزْلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِنُزْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: تَكُونُ الْأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟» قَالَ: إِدَامُهُمْ بِالْأَمِّ وَتُونٌ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: «تَوَزَّ وَتُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةٍ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "تكون الأرض خبزة واحدة"، الخبزة هي العجين الذي يوضع في الحفرة بعد إيقاد النار فيها، فينضج ويكون قطعة واحدة متصلة، وقوله: "يتكفوها"، أي: يقلبها ويميلها بين يديه، ومثل هذا نثبتته الله تعالى كما وصف رسوله صلى الله عليه وسلم بلا كيف، وبلا تشبيه أو تمثيل، وكذا دون تحريف أو تعطيل، وقوله: "نزلًا لأهل الجنة" أي: يجعلها الله سبحانه بذلك طعامًا لهم يأكلونها في الموقف قبل دخول الجنة أو بعده، والنزل: ما يقدم للضيف من طعام، والظاهر من هذا أن أرض المحشر ذاتها تتحول إلى شيء يؤكل، والله أعلم.

ثم يخبرنا أبو سعيد رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذات الأمر سواء بسواء، مما يعني أن الله تعالى أوحى بهذا لأنبياء بني إسرائيل أيضاً، فأخبروا أقوامهم به، وهو موجود في كتابهم، وهذا ما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يضحك لكلام الرجل، فقد أعجبه إخبار اليهودي بمثل ما حدث به أصحابه، وكان يعجبه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينزل عليه، فكيف بموافقتهم فيما أنزل عليه.

(١) رواه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (٢٧٩٢).

وقوله: "ألا أخبرك بإدامهم" الظاهر أنه من كلام اليهودي متممًا كلامه الأول، وقوله: "بالام ونون"، البالام هو الثور بالعبرانية، والنون هو الحوت البحري، و"زائدة كبدهما" هي القطعة المنفردة المتعلقة بكبدهما، وهي أطيب ما فيه، وخص بذلك السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، على النحو الذي ثبت في صحيح الأخبار، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

قال الحافظ: "ويستفاد منه: أن المؤمنين لا يعاقبون بالجوع في طول زمان الموقف، بل يقلب الله لهم بقدرته طبع الأرض حتى يأكلوا منها من تحت أقدامهم ما شاء الله، بغير علاج ولا كلفة"^(١)، قلت: وفيه إثبات المعاد، وبيان نعيم أهل الجنة، وإثبات اليد لله رب العالمين على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله، وفيه أيضاً: دليل من دلائل النبوة، وأن ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم من البينات والهدى يصدق ما بعث به الأنبياء من قبله، بخلاف ما حرفة أهل الكتاب من كتبهم، والله المستعان.

(١) فتح الباري: (١١ / ٣٧٤).

الحديث الرابع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوتِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلَا تَمْتَلِكِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَنَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهَذَا تَمْتَلِكِي وَيُزَوِّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خُلُقًا»^(١).

قوله: "تَحَاجَّتِ" أي: تخاصمت، أو أدلت كل منهما بحجتها على الأخرى، كما يفعل المتخاصمان من البشر في المنازعات، كأن كلتيهما تشكو أن سكنها من لا ترضى به، فالنار شكت أن سكنها المتكبرون والمتجبرون من الناس، وهم غلاظ الناس المتعالون المتعاضمون، الذي لا يطيعون أمرًا، ولا يأتون بخير، بينما شكت الجنة أن سكنها ضعفاء الناس وسقطهم، والسقط: هم من يحتقرهم الناس لفقرهم وضعفهم وهوان منزلتهم بمنظور أهل الدنيا، كما يحتقر الغني الفقير، وكما يحتقر أصحاب النفوذ بسطاء الناس، ونحو ذلك، وهؤلاء وإن كانت منزلتهم في أنظار الناس قليلة، فهم عند الله في منزلة عليا، وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»^(٢)، أشعث أغبر: أي رث الهيئة، مدفوع بالأبواب: أي لا قدر له عند الناس، فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه عنها احتقارًا له، لو أقسم على الله لأبره: أي لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكرامًا له، وصيانتة من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله وإن كان حقيرًا عند الناس.

(١) رواه البخاري (٤٨٥٠) وموضع، ومسلم (٢٨٤٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٢)، وابن حبان (٦٤٨٣)، والحاكم (٧٩٣٢)، والبيهقي في الشعب (٩٩٩٩).

وهذه المحاجة على حقيقتها، ولا يبعد حدوثها، وقد آمنا بأن الأرض تحدث أخبارها يوم القيامة، وأن جوارح الإنسان تنطق وتشهد عليه عند الحساب، فلا استحالة في حدوث المحاجة بين الجنة والنار، وعلينا التسليم بصدق الوحي حتى فيما لا تدركه عقولنا، والله المستعان.

ويقضي الله عز وجل بينهما، بأن يقول للجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي"، ويقول للنار: "إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي"، ويعد كلاهما بملئها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الجبار رجله - وفي رواية: قدمه - فيها فتقول: "قط، قط"، أي: كفى كفى، ويزوى بعضها إلى بعض، أي: يجتمع ويلتقي بعضها ببعض على من فيها، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه شيئاً، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والله تعالى منزّه عن ذلك، أما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها أناساً لم يعملوا خيراً، فيدخلهم إياها، وهذا فضل من الله تعالى، وفي هذا دليل على أن أصل دخول الجنة ليس في مقابل عمل، أو أن العمل ثمن لدخولها، وإنما يدخلها الناس برحمة الله جل وعلا، نسأل الله أن يجعلنا من أهل رحمته.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجنة والنار، وبيان صفة أهلها، وفيه إثبات صفة الرجل أو القدم لله رب العالمين دون تكيف أو تمثيل، على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله، فهو سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وفي الحديث أيضاً: تفاوت منزلة الناس في الدنيا والآخرة، وأن من الناس من تكون منزلته عند الناس هينة في الدنيا فقد يرفعه الله جل وعلا إلى أعلى المنازل بصدق إيمانه واستقامته، ومنهم من يكون في أعلى المنازل في الدنيا فيخفضه الله عز وجل إلى أدناها وأحقرها بفساده وسوء عمله وتكبره وتجبره، نسأل الله العافية، وفيه نفي الظلم عن الله جل وعلا.

الحديث الخامس عشر

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النَّسَاءَ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "اطلعت في الجنة" أي: كُشِّفَ لي فرأيت ما فيها، قيل: حدث ذلك في المعراج، وقيل: في المنام، وقيل غير ذلك، وقوله: "فرأيت أكثر أهلها الفقراء"، هذا لا يعني أن الفقر موجب للجنة بذاته، وإنما الصبر عليه، والرضا بما قسمه الله من الرزق، والاستقامة على الطريقة المحمودة برغم الحاجة، واجتناب المحرمات التي قد يلجأ إليها بعض المفتونين للتخلص من الفقر كالسرقة والرشوة وأخذ الربا وأكل حقوق الناس، فالفقير إذا لم يكن صالحًا فلا فضل له في الفقر، فهذه بشارة للمؤمنين من الفقراء الذين صبروا على حالهم، فبشروا بالفوز العظيم.

ولا يفهم من هذا الحديث أيضاً: أن الغنى سبب موجب للعذاب، فمن الأغنياء من يدخل الجنة ويبلغ فيها أعلى الدرجات إذا اكتسب ماله من حلال، وأنفقه في طاعة الله، ولهذا شكا الفقراء وأهل الصفة إلى النبي صلى الله عليه ذات يوم قائلين: "ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِالدرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا تَنْصَدُقُ، وَيُعِينُونَ وَلَا نُعِيقُ"^(٢). فالغني لديه من مجالات الطاعة ما يزيد على ما عند الفقير، إن اتقى الله وراقبه ورغب فيما عنده، قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿١﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٢﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٣﴾} [الليل: ٥ - ٧]، ولكن لما كانت كثرة المال فتنة، وقليل من يوفق للنجاة منها، كان أكثر أهل الجنة من الفقراء، لأن الصبر على الفقر أهون من التقوى مع الغنى، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ

(١) رواه مسلم (٢٧٣٧)، والترمذي (٢٦٠٢)، وأحمد (٢٠٨٦)، والطبراني (١٢٧٦٥).

(٢) رواه مسلم (٥٩٥).

تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمُ كَمَا أَهْلَكْتُهُمْ»^(١)، والله الموفق.

وأما كون أكثر أهل النار من النساء، فقد جاء مفسراً في طرق أخرى للحديث، منها ما في الصحيح: أنه صلى الله عليه وسلم قال: «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»^(٢). يكفرن العشير: من الكفر، وهو الستر والتغطية، أي ينكرن إحسانه، والعشير هو الزوج، مأخوذ من المعاشرة، وهي المخالطة والملازمة، فإن المرأة قد ترى من زوجها شيئاً تكرهه فتجدد فضله في غيره، وإن أحسن إليها مدة بقائها معه، فهذا طبعهن عامة إلا من استثنى الله جل وعلا.

وفي الحديث: إثبات المعاد، والجنة والنار، وأنهما مخلوقتان وموجودتان الآن، وفيه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم بإطلاع الله تعالى له على الجنة والنار وهما من الغيب، ورؤيته لأهلها، وفيه: حث الفقراء على الصبر على فقرهم، وحث النساء على المحافظة على أمر الدين، لئلا يدخلن النار، والله المستعان.

(١) رواه البخاري (٣١٥٨) وموضع، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) رواه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧).

الحديث السادس عشر

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ، تَوَضَّعَ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةً، يَغْلِي مِنْهَا دِمَاعُهُ»^(١).

هذا من أشد أحاديث الترهيب، يبين شدة عذاب النار أعاذنا الله منها، ففيه إشارة إلى شدة عذاب النار بذكر أهون أهلها عذابًا، وهو رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان فيغلي دماغه من حرهما، نسأل الله السلامة والعافية، وأخمص القدم: هو الفراغ الذي لا يصل إلى الأرض من باطنها، والجمرتان: قطعتان ملتھبتان من النار، عيادًا بالله، وهو مع هون هذا العذاب نسبة إلى غيره من أهل النار يبلغ به العذاب مبلغ أن يعتقد أنه أشد الناس عذابًا، مثلما ورد في بعض طرق الحديث: «مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدَّ عَذَابًا مِنْهُ وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا».

وقد جاء في بعض الأخبار أن هذا الرجل هو أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، لما ثبت من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنِغْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ»^(٢)، وذلك بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم له ليخفف الله عز وجل من عذابه، لما كان يحوطه به من الحماية والرعاية في حياته، لكن الحديث الأول، يحتمله هو وغيره، فلا يبعد أن يكون آخرون في النار على هذه الدرجة من العذاب، مثلما ورد في حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَأَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^(٣)، فدل هذا على تفاوت درجات العذاب في دركات جهنم، أعاذنا الله

(١) رواه البخاري (٦٥٦١، ٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣). (٢) رواه مسلم (٢١٢)، وأحمد (٢٦٣٦).

(٣) رواه البخاري (٦٥٥٧) ومواضع، ومسلم (٢٨٠٥).

وإياكم، وفيهم من يكون أهون عذابًا من غيره.

ويستفاد من الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان شدة عذاب النار، سلمنا الله تعالى منها، وتفاوت درجات العذاب فيها، وفيه: تحذير للعصاة والكافرين من هول هذا العذاب ليتوبوا إلى الله جل وعلا، ويتبعوا طريق الحق والاستقامة، نسأل الله السداد.

* * *

الحديث السابع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلْجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مَخُّ سَوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُحْرَةً وَعَشِيًّا»^(١).

يبين الحديث صفة أول زمرة تدخل الجنة من المؤمنين، والزمرة: الجماعة من الناس، وقوله: "تلج" أي: تدخل، والبدر: اسم للقمر حين يكتمل، ووصفهم بالبدر لأنه أشد ما يكون سطوعاً وبهاءً، للتعبير عن شدة الحسن والبهاء، وقوله: "لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون"، لعدم حاجتهم ذلك، فإنما جعل البصاق والمخاط والتغوط لإخراج الأذى من البدن، وليس في الجنة أذى للأبدان.

وقوله: "آنيتهم الذهب" أي: أوعيتهم التي يأكلون ويشربون فيها مصنوعة من الذهب الخالص، وكذلك أمشاطهم التي يمتشطون بها ويصففون شعورهم مصنوعة من الذهب والفضة، و"مجامرهم الألوة": المجامر جمع مجمرة وهي المبخرة، سميت بذلك لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور، والألوة: العود الهندي الذي يتبخر به، و"رشحهم المسك": الرشح هو العرق له ريح كريح المسك طيب الرائحة جداً. وقوله: "يُرى مخ سَوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ" أي: لكل منهم زوجتان في غاية الحسن والصفاء، حتى إنه يرى الرائي مخ ساقها - أي ما داخل العظم من الساق - كناية عن صفاء جسدها ورقة بشرتها.

وهذا الذي تقدم هو الوصف الحسي لهم، ثم يأتي الوصف المعنوي: أنهم على قلب رجل واحد، أي: في غاية الاجتماع والاتفاق، حتى كأن قلوبهم جميعاً قلب واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباعد، فقد صفت نفوسهم حتى صارت نقية خالية من

(١) رواه البخاري (٣٢٤٥) وموضع، ومسلم (٢٨٣٤).

العداوة والبغضاء، عامرة بالحب والمودة، كما قال جل شأنه: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا} [الحجر: ٤٧]، وفوق ذلك يقضون أوقاتهم متلذذين بالتسبيح، وهذا التسبيح ليس عن تكليف، وإنما يلهمونه كما يلهمون النفس.

وهذا كله وصف أول زمرة تدخل الجنة، وهم الأنبياء والصديقون من أتباعهم والذي قدر الله لهم دخولها بغير حساب نسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا منهم، وقد جاء في بعض طرق الحديث: «وَالَّذِينَ عَلَى أَثَارِهِمْ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً»، أي: أي الذين يلونهم ويدخلون بعدهم، فأهل الجنة لا يدخلون الجنة دفعة واحدة، وإنما يدخلون جماعة بعد جماعة بحسب منازلهم، قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} [الزمر: ٧٣]، أي جماعات متتابعة، وهؤلاء يكونون كأشد كوكب دري إضاءة، وهو الكوكب العظيم البراق الشديد الإضاءة، سمي الدرّي لبياضه وشدة بريقه كالدر أو اللؤلؤ.

وجاء في بعض طرقه أيضاً: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»، فقام عكاشة بن محصن الأسدي، فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَّاشَةُ».

وفي بعض طرقه أيضاً: «وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَغْرَبُ»، وفي بعضها: «أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ».

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان نعيم أهل الجنة وتفاوت دخولهم الجنة وهيئتهم فيها، وأن الجنة مطهرة عن الأقدار، نسأل الله التوفيق والسداد.

الحديث الثامن عشر

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوتِهِ»^(١).

هذا الحديث يقرر تصاعد درجات العذاب، أعاذنا الله منه، فقوله صلى الله عليه وسلم: "منهم"، أي: من أهل النار أعاذنا الله وإياكم، وقوله: "إلى كعبيه": الكعب هو العظم البارز من الجانبين أعلى القدم عند مفصل الساق منها، و"حجرتة": هي موضع عقد الإزار والسراويل من الإنسان، الذي يُفُتُّ عليه الحزام، و"ترقوته": هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، أو العظمة الطويلة التي تمتد أفقيًا في الجزء العلوي من الصدر، فتربط بين عظمة القص من المنتصف، ولوح الكتف من الجانبين.

والمقصود: أن عذاب أهل النار يتفاوت بحسب ما قدموا في الدنيا، فمنهم من تغطي النار قدميه حتى الكعبين، ومنهم من يخاض فيها حتى ركبتيه، ومنهم من ينغمس فيها حتى خصره، ومنهم من تغمره النار حتى مبدأ عنقه، والعياذ بالله من كل ذلك، وهذا بغرض التهيب والتحذير من النار، وبيان شدة عذابها وأهوالها حتى تخشع النفوس، وتجتهد للنجاة من جهنم ملتقى العصاة والكفرة، نسأل الله العافية. وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب والجزاء، والتحذير من النار وما يؤدي إليها من عمل، والحض على طاعة الله تعالى واتباع الرسل عليهم السلام.

(١) رواه مسلم (٢٨٤٥)، وأحمد (٢٠١٠٣)، وابن أبي شيبة (٣٤١٧٩)، وابن أبي عاصم (٨٥٤)، والطبراني (٦٩٦٩).

الحديث التاسع عشر

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(١).

الأقتاب: جمع قتب، وهي الأمعاء والأحشاء، والرحا: حجر الطاحون التي تستخدم في طحن الغلال لتصير دقيقًا، وتحتاج إلى حيوان - كالحمار ونحوه - ليدبرها، فهي تشبه الساقية، أي أن هذا الرجل كان معروفًا في الدنيا بحرصه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا به يُقَضَى عليه في الآخرة بدخول النار، والعياذ بالله، وعلاوة على ذلك يدور في النار وقد خرجت أمعاؤه خارج بطنه كدوران الحمار حول رحاه، حتى يجتمع عليه أهل النار ويسألونه تعجبًا من حاله، واستشناعًا له: ما الذي جلب عليك هذا العذاب، وقد عهدناك في الدنيا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيجيب بأنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، أي أنه قوله يخالف فعله، وهذا مذموم غاية الذم، نسأل الله العافية.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على هذه الأمة، كلٌّ بحسب قدرته، بيده أو بلسانه أو بقلبه، كما كان واجبًا على الأمم السابقة، وذمهم الله تعالى على تركه، قال تعالى: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المائدة: ٧٩]، قال القرطبي رحمه الله: "وليس من شرط الناهي أن يكون عدلًا عند أهل السنة، خلافًا للمبتدعة حيث تقول: لا يغيره إلا عدل، وهذا ساقط، فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس، فإن تشبثوا بقوله تعالى: {اتَّأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: ٤٤]،

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧، ٧٠٩٨)، ومسلم (٢٩٨٩).

وقوله: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٣] ونحوه، قيل لهم: إنما وقع الذم ها هنا على ارتكاب ما نهى عنه، لا على نهيه عن المنكر، ولا شك في أن النهي عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الحمار بالرحى^(١)، نسأل الله العافية.

وهذا مفاده: أنه لا يشترط أن يكون الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر معصوماً من الذنوب، فالعصمة لا تكون إلا للأنبياء عليهم السلام، وإنما المذموم أن يأمر الناس بفعل شيء ويتخلف هو عن فعله، كمن يأمر الناس بالصدقة وهو ممسك، أو يأمرهم بصلة الأرحام وهو قاطع، وكذلك أن ينهى عن المنكر ويفعله، كمن ينهى عن الغش أو الربا أو شرب الخمر ويفعل ذلك أو بعضاً منه، فهذا الذي يجري عليه الوعيد المذكور في الحديث، لأنه يخادع الناس، أما إن كانت له ذنوب وآثام في غير ما يأمر به من المعروف وينهى عنه من المنكر، فهو يثاب على أمره ونهيه، ويجازى على ذنوبه الأخرى أو يعفو الله عنه، قال الحافظ: "يجب الأمر بالمعروف لمن قدر عليه ولم يخف على نفسه منه ضرراً، ولو كان الأمر متلبساً بالمعصية، لأنه في الجملة يؤجر على الأمر بالمعروف، ولا سيما إن كان مطاعاً، وأما إثمه الخاص به فقد يغفره الله له، وقد يؤاخذ به"^(٢).

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وأن بعض الناس يعذب في النار على صفة مخصوصة تلائم الذنب الذي أتاه في الدنيا، وفيه أيضاً: ذم إظهار الإنسان خلاف ما يبطنه، وأن يقول ما لا يفعل، والله المستعان.

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٤ / ٤٧، ٤٨).

(٢) فتح الباري: (١٣ / ٥٣).

الحديث العشرون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءُونَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَائِبَ فِي الْأَفْقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "إن أهل الجنة" يراد به: الذين هم في أدنى درجات الجنة، وقوله "يتراءون" أي: يرون وينظرون ويتطلعون لذلك، والمراد بأهل الغرف: أصحاب المنازل العالية، كما في قوله تعالى: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الزمر: ٢٠]، والكوكب الدري: يعني الكوكب المضيء الذي ذهب بعد انتشار ضوء الفجر في أطراف السماء، وقوله: "لتفاضل ما بينهم" أي: لتفاوت وبعد منازل أهل الغرف وعلو درجاتهم عن باقي أهل الجنة. ولما سمع الصحابة رضوان الله عليهم هذا الحديث ظنوا أن تلك الغرف العالية تخص الأنبياء وحدهم، لأنهم صفوة البشر، فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه المنازل ليست مقصورة على الأنبياء وحدهم صلوات الله وسلامه عليهم، بل يبلغها رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين حق تصديقهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة الجنة وتفاوت درجاتها ومنازلها، وفيه أيضًا: فضل الأنبياء على من سواهم، وفضل الإيمان بالله عز وجل وتصديق رسله عليهم السلام فيما أخبروا به عن ربهم دون تحريف.

(١) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

الحديث الحادي والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تَبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ، بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ»^(١).

العنق: المراد قطعة من النار طويلة ممتدة تشبه العنق، ويجوز فيها التذكير والتأنيث، وفي رواية الترمذي جاء بصيغة المؤنث، وفي غيره جاء بصيغة المذكر، وهذا العنق يخلق الله تعالى له عيني يري بهما، وأذنين يسمع بهما، ولساناً يتكلم ويفصح به، ويقول: "وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ"، أي: أمرني الله سبحانه وتعالى بثلاثة أصناف من الناس أدخلهم في جهنم، وهم: كل جبار عنيد، أي: كل إنسان ظالم، يعرف الحق ويجحده، ويتجبر على من هم دونه، والجبار: هو المتعالي عن قبول الحق والإذعان له، وإذا أطلقت على الإنسان تكون صفة "لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالى لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم"^(٢)، كما في قوله تعالى: {وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم: ١٥]، وقوله: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر: ٣٥].

والثاني: كل من دعا - أي: عبد - إلهاً آخر، مشركاً بالله جل وعلا، والشرك بمعناه الواسع: كل من جعل لله تعالى شريكاً أو ندّاً في ذاته أو صفاته، أو ربوبيته وألوهيته، تعالى الله عن ذلك.

والثالث: المصورون، وهم النحاتون الذين يصنعون وينحتون التماثيل التي تضاهي خلق الله تعالى، كما جاء في حديث آخر: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»^(٣).

(١) رواه الترمذي (٢٥٧٤)، وأحمد (٨٤٣٠)، والبيهقي في البعث والنشور (٥٢٤)، والشعب (٥٩٠٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص (١٨٤).

(٣) رواه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩).

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة العذاب لفئات من الناس،
والترهيب من هذه الأنواع من المعاصي، نسأل الله العافية.

الحديث الثاني والعشرون

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا: رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبُوءًا، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَذْهَبَ فَأَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيَخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ: أَذْهَبَ فَأَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيَخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ: أَذْهَبَ فَأَدْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي - أَوْ: تَضْحَكُ مِنِّي - وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟» قال ابن مسعود: "فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَقُولُ: «ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً»^(١).

قد تقدم أن أهل الجنة لا يدخلونها دفعة واحدة، بل جماعات متتابعة، ومن أهل التوحيد من تنقل ذنوبه حتى يدخل النار، فيعذب بها بقدر ما يستحق من العذاب ثم يخرج منها إلى الجنة، وهذا الحديث يبين حال آخر رجل من أهل التوحيد يخرج من النار، فيخرج منها كَبُوءًا، وفي رواية: "حبوًا"، أي: زحفًا، والمراد: يمشي مشيًا ضعيفًا مرة، ويسقط على وجهه مرة، وذلك من شدة ما عاناه من العذاب، وفي بعض طرق الحديث: "فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُوءُ مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً"، أي: تصيبه وتلفحه وتحرقه، وتترك أثرًا في وجهه، "فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا التَّقَتْ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكَ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ"، وذلك من شدة فرجه يحدث نفسه أن الله تعالى قد كرمه بإخراجه من النار ما لم يكرم به أحدًا من خلقه غيره.

ثم يقال للرجل: ادخل الجنة، فَيَأْتِيهَا فَيَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَلَأَى، بحيث لا مكان له فيها، فقد دخلها جميع المؤمنين قبله جماعات متتابعة، حتى لم يبق إلا هو، فيرجع ويقول: "وجدتها مَلَأَى" ثلاث مرات، حتى يقال له إن لك في الجنة ما يساوي نعيم الدنيا كله وعشر أمثاله، فإذا كان هذا نصيب آخر أهل الجنة دخولًا فيها، فما الظن

(١) رواه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦).

بمن دخلها قبل؟ نسأل الله أن يجعلنا من أهل السعادة، وأن يقينا عذابه في الدنيا والآخرة.

وقد جاء في طريق أخرى للحديث أنه: «تَرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَذْنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلَا تُسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنِّي أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَغْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُذْنِبُهُ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تَرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَذْنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، وَأُسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنِّي أَذْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَغْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُذْنِبُهُ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تَرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَذْنِي مِنْ هَذِهِ لِأُسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَغْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُذْنِبُهُ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَدْخَلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِيَنِي مِنْكَ؟ أَيْرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟»

فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ، قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»^(١).

وقوله: "ما يصريني منك؟" أي: ما يقطع مسألتك مني، والصرى: هو القطع، والمراد: أي شيء يرضيك ويقطع السؤال بيني وبينك، وما الذي تطلبه حتى تقنع به وتكف عن مسألتك لي؟

(١) رواه مسلم (١٨٧).

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان ما أعده الله جل وعلا لأهل الجنة من النعيم المقيم الذي يفوق كل نعيم الدنيا وعشر أمثاله بالنسبة لأدنى أهل الجنة منزلة، فما الظن بمن هم فوقه في المنزلة؟ وفي الحديث أيضاً: إثبات أن المعذبين في النار من أمة التوحيد غير مخلصين في النار، وسيخرجون منها عندما يأذن الله بذلك، والترغيب في العمل والمجاهدة من أجل رفع الدرجات في الجنة.

وفيه: إثبات صفتي الكلام والضحك لله رب العالمين على الوجه الذي يليق بجلاله، دون تكيف أو تمثيل، ودون تحريف أو تعطيل، والله المستعان.

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ضُرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أُحُدٍ، وَغِلْظُ جُلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ».

وفي بعض طرقه: «إِنَّ غِلْظَ جُلْدِ الْكَافِرِ اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ».

وفي بعض طرقه أيضًا: «ضِرْسُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَعَرْضُ جُلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَفَخْذُهُ مِثْلُ وَرْقَانٍ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مِثْلُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّبْدَةِ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "مثل أحد" أي: في نفس حجم جبل أحد طولًا وعرضًا، وكذلك المعنى في قوله: وفخذه مثل ورقان"، وورقان اسم جبل في نجد بالجزيرة العربية، "غلظ جلده": يعني عرضه وسمكه، والمعنى: أن الكافر يعاد خلقه ويغلظ في سماكته حين يدخل النار حتى يكون غليظًا بعرض اثنتين وأربعين ذراعًا، والذراع مقياس للطول والمسافة أقل من المتر طولًا.

وقوله: "وإن مجلسه من جهنم"، أي: مكان وموضع جلوس الكافر في النار يوم القيامة، "ما بين مكة والمدينة"، أي: مثل ما بينهما من البعد والمسافة، وكل هذا يدل على عظم خلق أهل النار يوم القيامة، فإن قيل: لماذا تعظم أجسامهم هكذا؟ والجواب في بعض طرق الحديث: «يُعْظَمُونَ لِتَمْتَلِئَ مِنْهُمْ، وَلِيَذُوقُوا الْعَذَابَ»، قال النووي رحمه الله: "هذا كله لكونه أبلغ في إيلاسه، وكل هذا مقدور الله تعالى، يجب الإيمان به لإخبار الصادق به"^(٢).

وقيل: إنما تضخم أجسامهم حتى يتحملوا شدة عذاب النار، فهيئتهم التي كانوا عليها في الدنيا لا تقوى على تحمل العذاب، فبدل الله خلقهم حتى يذيقهم العذاب الأليم، فيكون أمعن في التكيل بهم، والله أعلم، ونسأل الله السلامة والعافية.

(١) رواه مسلم (٢٨٥١)، والترمذي (٢٥٧٧)، وأحمد (٨٣٤٥)، وابن أبي عاصم (٦١١).

(٢) شرح صحيح مسلم: (١٧ / ١٨٦).

وفي الحديث: "إثبات المعاد والجزاء، وبيان شدة العذاب في النار وصفة من يعذب فيها، أَعَاذَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ.

الحديث الرابع والعشرون

عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مَجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

قد ثبت وجود الخيام في الجنة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: {خُورٍ مَقْصُورَاتٍ فِي الْخِيَامِ} [الرحمن: ٧٢]، لكن خيام الجنة تختلف عن خيام الدنيا، فهي مصنوعة من لؤلؤ، وهذه الخيام واسعة جدًا بحيث يبلغ عرضها نحو ستين ميلًا بمقاييس أهل الدنيا، وجاء في بعض طرق الحديث أن ارتفاعها لأعلى يبلغ ثلاثين ميلًا أيضًا، وهذا بيان لكبر وعظم مساحتها، كما أنها مجوفة من الداخل، أي بها فراغات تشبه الغرف، وفي كل غرفة منها أهل للمؤمن الساكن فيها، لا يراهم من في الناحية الأخرى.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة الجنة ومساكنها، وما أعده الله جل وعلا لعباده المؤمنين، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

(١) رواه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨) واللفظ له.

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اَشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأُذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشَّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهِيرِ»^(١).

اختلف أهل العلم في تأويل "اشتكت النار"، فمنهم من قال: هو على حقيقته، حيث أنطقها الله الذي أنطق كل شيء، كما ينطق الأيدي والأرجل والجلود لتشهد على أصحابها يوم القيامة، وكما أنطق الطير والجمال لتردد خلف تسبيح داود عليه السلام، ومنهم من حمله على المجاز، على سبيل التشبيه والتقريب، وقالوا: شكواها مجاز عن غليانها، وأكلها بعضها بعضًا مجاز عن ازدحام أجزائها، وتنفسها مجاز عن خروج ما يبرز منها، قال النووي رحمه الله: "والصواب الأول، لأنه ظاهر الحديث، ولا مانع من حمله على حقيقته، فوجب الحكم بأنه على ظاهره، والله أعلم"^(٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أُذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ.."، فيه إشارة إلى أن عذاب النار منه ما هو حر، ومنه ما هو برد، وهذا بخلاف الجنة التي ليس فيها حر ولا برد يؤذي أهلها، قال تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهِيرًا} [الإنسان: ١٣]، فنفي ذلك عن الجنة يفيد إثباته في حق النار، نسأل الله العافية.

وقد جاء في بعض طرق الحديث: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»، فيح جهنم: أي وهجها وشدة حرها، و"أبردوا" أي: أخرجوا الصلاة حتى ينكسر الحر ويبرد، ومذهب الجمهور استحباب تأخير الظهر في شدة الحر إلى أن يبرد الوقت وينكسر الوهج، وخصه بعضهم بالجماعة، فأما المنفرد فالتعجيل في حقه أفضل، وهذا قول أكثر المالكية والشافعية أيضًا، لكن خصه بالبلد الحار،

(١) رواه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧).

(٢) شرح صحيح مسلم: (١٢٠ / ٥).

وقيد الجماعة بما إذا كانوا ينتابون مسجداً من بعد، فلو كانوا مجتمعين قبل، أو كانوا يمشون في الظل، فالأفضل في حقهم التعجيل، والمشهور عن أحمد التسوية من غير تخصيص ولا قيد، والله أعلم^(١).

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وفيه بيان صفة النار وكيفية عذاب أهلها فيها بالحر والبرد، وفيه أيضاً: بيان عظمة قدرة الله جل وعلا.

(١) انظر فتح الباري: (٢ / ١٦).

الحديث السادس والعشرون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١).

قوله: "لبيك ربنا وسعديك" معناه: نجيبك يا رب إجابة بعد إجابة، وإسعادًا بعد إسعاد، وهذا من قبيل المبالغة في إظهار الخضوع والطاعة والاستجابة، وقوله: "هل رضيتم؟" هذا سؤال من الرب جل وعلا لهم بعد إدخالهم الجنة، وإنقاذهم من عذاب النار، ثم يخبرهم بأن هناك ما هو أفضل من هذا: أن ينزل عليهم دوام رضوانه، فإنه لا يلزم من كثرة العطاء دوام الرضا، ولذا قال بعدها: "فلا أسخط عليكم بعده أبدًا"، أي: لا أغضب عليكم بعد هذا العطاء أبدًا، وهذا مصداق لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة نعيم الجنة، وأعظمها دوام رضوان الله على أهلها، وفيه أيضًا: إثبات صفة الكلام لله عز وجل مع أهل الجنة على الوجه الذي يليق بجلاله، وفيه: أن مقام الرضا فوق جميع المقامات، والله الموفق.

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

الحديث السابع والعشرون

عن جابر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُعَذَّبُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فِي النَّارِ حَتَّى يَكُونُوا فِيهَا حُمَمًا، ثُمَّ تُدْرِكُهُمُ الرَّحْمَةُ، فَيُخْرِجُونَ وَيُطْرَحُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ» قَالَ: «فَيَرشُ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْمَاءَ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْغُثَاءُ فِي حِمَالَةِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "يعذب ناس من أهل التوحيد" أي: يدخل أناس مسلمون النار ممن ماتوا على عقيدة التوحيد، وأقروا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ولكن رجحت سيئاتهم حسناتهم، فيعذبون على ذنوبهم، "حتى يكونوا فيها حممًا"، أي: حتى يصيروا كالفحم المحترق فيها من شدة العذاب، ويسودُّ لونهم، "ثم تدرکہم الرحمة"، أي: تلحقهم وتنالهم رحمة الله تعالى، فيخرجون من النار ويلقون على أبواب الجنة، على مرأى من أهلها الذين يرشون عليهم الماء، وهو ماء الحياة في الجنة.

وقوله: "فينبتون"، أي: تنمو أجسادهم وتتضر وتزدهر، "كما ينبت الغطاء"، وهو الحشائش والأعشاب التي تنبت على جوانب الأنهار في التربة التي يحملها السيل من الطين ونحوه، وشبههم بذلك لأنه أسرع في الإنبات، ثم يدخلون الجنة فيستقرون فيها برحمة الله جل وعلا.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وأن من دخل النار من أهل التوحيد لا يخلد فيها، بل مآلهم إلى الجنة آخرًا، وفيه التحذير من الذنوب التي تقضي إلى النار، وبيان شدة عذاب النار بحيث يخرج الناس منها كالفحم المحترق، نسأل الله العافية.

(١) رواه الترمذي (٢٥٩٧)، وأحمد (١٥١٩٨)، وأصله في الصحيحين بغير هذا اللفظ.

الحديث الثامن والعشرون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا، يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْنُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ أَزْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ، لَقَدْ أَزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»^(١).

السوق في الجنة ليست كأسواق الدنيا، فليس في الجنة بيع ولا شراء ولا مقايضة، وإنما المراد: موضع يشتمل على محاسن المشتبهات والمستلذات التي يبغيها أهل الجنة، تُجمع هنالك مرتبة محسنة، كما تجمع السلع في أسواق الدنيا، فيأتيها أهل الجنة فيأخذون منها ما يشتهون ويذهبون من غير ثمن ولا معاوضة، وقال النووي رحمه الله: "المراد بالسوق: مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق، ومعنى (يأتونها كل جمعة) أي: في مقدار كل جمعة، أي: أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع، لفقد الشمس والليل والنهار"^(٢). قلت: وخص يوم الجمعة بذلك لفضيلته، فأيام الجنة تقديرية، إذ لا ليل ولا نهار فيها، والله الموفق.

وقوله: "تهب ريح الشمال"، سميت بذلك لأن العرب كانوا يستبشرون بريح الشمال في الدنيا، إذ كانت ريحًا لطيفة ممطرة تأتي من قبل الشام، فهي من أحسن الرياح عندهم، أما تلك التي في الجنة فإنها تنشر المسك والزعفران، وأنواع الطيب الحسن، على أبدانهم وثيابهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، والحسن والجمال لهما المعنى ذاته فالترادف للتأكيد، وقيل: الحسن يختص بالثياب، والجمال بالوجوه، والله أعلم.

والمقصود: أنه كما كان العرب يفرحون بريح الشمال في الدنيا، فإن أهل الجنة يفرحون بريح الجنة العطرة، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا أكثر مما

(١) رواه مسلم (٢٨٣٣)، وأحمد (١٤٠٣٥)، وابن حبان (٧٤٢٥)، والبيهقي في البعث والنشور (٣٧٤).

(٢) شرح صحيح مسلم: (١٧٠ / ١٧).

كانوا عليه قبل أن يخرجوا من عندهم، من أثر تلك الريح، فيقول لهم أهلوهـم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا.

وأما ردهم على أهليهم: "وأنتـم قد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا"، فيحتمل أن تلك الريح تهب على أهليهم أيضًا، ولا تقتصر على من ذهبوا للسوق، ويحتمل أن يكون الجمال والحسن متجدد لأهل الجنة على الدوام، فلما غابوا عنهم قليلًا ثم رجعوا إليهم رأوهم قد ازدادوا حسنًا وجمالًا لتجدد النعيم والنصرة في الجنة، والله أعلم.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة نعيم الجنة، أسأل الله أن يجعلنا من أهل هذا النعيم.

الحديث التاسع والعشرون

عن عبد الله بن الحارث الزبيدي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِي النَّارِ لَحَيَّاتٍ مِثْلُ أَغْنَاقِ الْبُخْتِ، يُلْسَعْنَ أَحَدَهُمُ اللَّسْعَةُ فَيَجِدُ حَمَوَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا»^(١).

قوله: "إِنَّ فِي النَّارِ لَحَيَّاتٍ"، جمع حَيَّة، وهي الأفعى السامة وغير السامة، وهي غليظة وضخمة كأعناق البخت، وهي نوع من الإبل الضخمة ذات الأعناق الطويلة والغليظة، تلدغ الرجل من أهل النار لدغة يجد "حموها" أو "حموتها" يعني: حرارة لدغتها وشدة ألمها، وقوله: "أربعين خريفًا" أي: أربعين سنة، سواء كان هذا على حقيقته أم على سبيل التكثير والمبالغة، للدلالة على شدة لدغتها، نسأل الله السلامة والعافية.

وهذا الحديث في إسناده مقال، إلا أنه يشهد له ما ورد في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} [النحل: ٨٨]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «زِيدُوا عَقَارِبَ أَدْنَاهَا – أو قال: أَنْيَابَهَا – كَالنَّخْلِ الطَّوَالِ»^(٢). وروى أبو جعفر الطبري بإسناده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: "إِنَّ لَجَهَنَّمَ سَوَاحِلَ فِيهَا حَيَاتٌ وَعَقَارِبُ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ"^(٣).

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة العذاب في النار، أعادنا الله من النار وعذابها.

(١) رواه أحمد (١٧٧١٢)، والحاكم (٨٧٥٤)، وابن حبان (٧٤٧١)، والبيهقي في البعث (٥٦١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٤٣١٨)، والطبراني (٩١٠٣)، والحاكم (٣٣٥٧).

(٣) تفسير الطبري "جامع البيان": (٢٧٧ / ١٧).

الحديث الثلاثون

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ»^(١).

سبق مرارًا التأكيد على أن من دخل النار من أهل التوحيد لا يخلد فيها، وأن ماله بعد ذلك إلى الجنة، والذين يخرجون من النار إلى الجنة على صنفين، ذكر الحديث صنفًا منهم، وهم أولئك الذين يخرجون بشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه له أنواعًا من الشفاعات: شفاعته العامة في أهل الموقف حتى يقضى بينهم، وشفاعته في دخول المؤمنين الجنة، وشفاعته في رفع درجات بعضهم، وشفاعته في بعض أصحاب الكبائر أن يدخلوا الجنة ابتداءً، وشفاعته في إخراج بعض مستحقي العذاب من النار بعد دخولهم فيها، وهم المعنيون بهذا الحديث.

وأما الصنف الآخر: فإنهم يخرجون من النار إلى الجنة بفضل الله ورحمته، لا بشفاعة أحد، ويسمون "عتقاء الرحمن" أو "عتقاء الله"، كما جاء في الحديث الشريف: «فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللَّوْلُو، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ»^(٢).

وقوله: "يسمّون الجهنميّين"، فهو نسبة لجهنم، وهذه التسمية ليست تنقيصًا لهم، بل هي تذكير بما كانوا عليه من الحال حتى تداركتهم رحمة الله، فيستشعروا فضل الله عليهم، ويزيدوا فرحًا على فرح، وابتهاجًا على ابتهاج، والله الحمد على كل حال، ونسأله التوفيق والسداد وحسن العاقبة.

(١) رواه البخاري (٦٥٦٦)، وأبو داود (٤٧٤٠)، والترمذي (٢٦٠٠)، وابن ماجه (٤٣١٥)، وأحمد (١٩٨٩٧).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣] ^(١).

هذا من الغيب الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، ومن يجيء بعدهم، ليشوق النفوس إلى الجنة، ويشحذ الهمم لها، ليشمر لها الطالبون، ويرغب فيها الراغبون، وفي هذا الحديث يخبرنا صلى الله عليه وسلم: أنه بعد دخول أهل الجنة الجنة، ينادي منادٍ فيهم مبشراً: "إن لكم أن تصحوا" أي: أن تكونوا صحيحي البدن أبداً، فلا يصيبكم مرض ولا وهن ما دامت الجنة، وهي دائمة أبداً بإذن الله، وأن تظلوا أحياء لا تموتون أبداً، {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [الدخان: ٥٦]، و"أن تشبوا" أي: يدوم شبابكم، "فلا تهرموا أبداً"، أي: لا يشيخ أحد من أهل الجنة، و"أن تتعموا" أي: تعيشوا في نعيم دائم لا ينقطع أبداً، فليس في الجنة بؤس ولا شقاء من أي نوع.

والمقصود من ذلك كله: أنهم يعيشون بالنعيم التام الذي لا ينغصه مرض ولا وهن ولا شيخوخة ولا موت ولا شقاء، فمن يدخل الجنة لا يأخذه البأس والشدة، ولا الجوع والعطش، ولا الفقر والمرض، لأن الجنة دار النعيم والقرار، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

ثم يذكر بقول الله تعالى: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]، أي: هذه هي الجنة التي أخبرتكم بها رسل الله في الدنيا، لا بؤس فيها ولا مرض ولا وهن، قد أعقبكم الله إياها بما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة، التي تريدون بها وجه الله تعالى.

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧)، وأحمد (٨٢٥٢)، والدارمي (٢٨٦٦).

والباء في قوله تعالى: {يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} هي باء السبب لا العوض، فالآية فيها إثبات دخول الجنة بالعمل، بينما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعِمَّنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(١)، قال ابن أبي العز الحنفي: فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل الجنة أحد بعمله) باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله، والباء التي في قوله تعالى: {جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧] وغيرها، باء السبب، أي: بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته^(٢).

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة نعيم الجنة، والتأكيد على أنه نعيم خالص لا ينغصه شيء، ودائم لا ينفد، والله الموفق.

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣) وموضع، ومسلم (٢٨١٦) واللفظ له.

(٢) شرح الطحاوية: ص (٤٣٨).

الحديث الثاني والثلاثون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَرْبَعَةٌ فَيَعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ، فَيُلْتَفَتُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَلَا تُعَذِّبَنِي فِيهَا، فَيُنْجِيهِ اللَّهُ مِنْهَا»^(١).

ورواه أحمد والبيهقي مطولاً: «إِنَّ عَبْدًا فِي جَهَنَّمَ يُنَادِي أَلْفَ سَنَةٍ يَا حَنَّانُ، يَا مَنَّانُ، قَالَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا جَبْرِيلُ أَنْتَ عَبْدِي، قَالَ فَيَنْطَلِقُ جَبْرِيلُ فَيَرَى أَهْلَ النَّارِ مُنْكَبِّينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، قَالَ: فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ اللَّهُ ائْتِنِي بِهِ فَإِنَّهُ فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِ فَيَجِيءُ بِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا عَبْدِي، كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ وَمَقِيلَكَ؟ قَالَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَرٌّ مَكَانٍ وَشَرٌّ مَقِيلٍ، قَالَ: فَيَقُولُ رُدُّوْا عَبْدِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَرُدَّنِي إِذَا أَخْرَجْتَنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: دَعُوا عَبْدِي».

هؤلاء الأربعة هم آخر من يخرج من النار من أهل التوحيد بعد انقضاء مدة عذابهم فيها، أعادنا الله منها، فيعرضون على ربهم ليقضي فيهم أمره، والطريق الأخرى اقتصر على واحد منهم، وهو المتكلم في الطريق الأولى، وقوله: "ردوا عبدي" أي: أعيدوه إلى النار ثانية، وهذا على وجه الامتحان له، فيقول: يا رب، لقد كنت أرجو وأطمع في فضلك وجودك: أنك إذ أخرجتني من النار، ألا ترجعني إليها، فيخلصه الله سبحانه من النار، ولا يرده إليها، ويدخله الجنة سبحانه جل شأنه بجوده ورحمته، ومجازاة له على حسن ظنه بربه.

وفي هذا الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وأن من أهل التوحيد من يدخل النار على ذنوب اقترفها في دنياه، لكنه لا يخلد فيها، وفيه: فضل حسن الظن بالله عز وجل، والله المستعان.

(١) رواه مسلم (١٩٢)، وأحمد (١٣٤١١)، وابن حبان (٦٣٢)، والبيهقي في البعث والنشور (٥٣).

الحديث الثالث والثلاثون

عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءَ الْكَبِيرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَظِيمَةٍ»^(١).

قوله: "جنتان من فضة".."وجنتان من ذهب"، أي: للمؤمن عند ربه ذلك كله، وهذا كما قال الله تعالى في كتابه: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ} [الرحمن: ٤٦]، وقال بعدها: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٦٢]، وقد ورد في حديث آخر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تك الأخرى ترى ما أصنع، فقال: «وَيَحْكُ، أَوْهَلِبْتَ؟ أَوْجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جَنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»^(٢).

ولا منافاة بين الحديثين، فإن الأول ذكر ما يكون لبعض المؤمنين من الثواب، إذ يكون له جنتان من ذهب، وجنتان من فضة، أما الحديث الآخر فذكر إنها جنات كثيرة للمؤمنين عامة، وهذا يفضي إلى مسألة: هل الجنات الكثيرة جنات مستقلة، لكل جنة منها أهلها وسماتها، أم هي جنة واحدة ذات درجات ومنازل عديدة، وكل درجة لها صفاتها وسماتها؟

والجواب: أنها جنة واحدة ذات درجات ومنازل متعددة، ودل عليه ما جاء في بعض طرق حديث أنس الذي تقدم: "إِنَّهَا جَنَانٌ فِي جَنَّةٍ"، وقع هذا عند الترمذي، وفي بعض الطرق في المسند: "إِنَّهَا جَنَانٌ فِي الْجَنَّةِ"، فدل هذا على أن الجنان المذكورة في حديث عبد الله بن قيس - وغيره - داخلة في الجنة الكبرى التي أعدها الله لعباده المؤمنين، ولكنها مقسمة بالداخل إلى منازل ودرجات بعضها فوق بعض،

(١) رواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) رواه البخاري (٣٩٨٢) ومواضع، والترمذي (٣١٧٤)، وأحمد (١٢٢٥٢).

ولكل درجة أو منزلة مزاياها وخيراتها ونعيمها، وأعلى درجات الجنة "الوسيلة"، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَدَّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّقَاعَةُ»^(١)، ومنزلة الوسيلة كما تبين هي خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم وحده، تليها الفردوس، وهذه يدخلها صفوة المؤمنين كما تقدم في حديث أم حارثة رضي الله عنها.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٢).

قال الزمخشري: "الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان"^(٣)، وقال بعض أهل العلم: "لها سبعة عشر اسماً، وكثرة الأسماء آية شرف المسمى، أولها: هذا اللفظ العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم والبهجة والسرور، وقرة العين، ثم دار السلام: أي السلامة من كل بلية، ودار الله، ودار الخلد، ودار الإقامة، وجنة المأوى، وجنة عدن، والفردوس، وهو يطلق تارة على جميع الجنان، وأخرى على أعلاها، وجنة النعيم، والمقام الأمين، ومقعد صدق، وقدم صدق، وغير ذلك مما ورد به القرآن"^(٤).

(١) رواه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والنسائي (٦٧٨)، والترمذي (٣٦١٤)، وأحمد (٦٥٦٨).

(٢) رواه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣)، والترمذي (٢٥٢٩)، وأحمد (٨٤١).

(٣) الكشف: (١/ ١٠٦).

(٤) فيض القدير للمناوي: (١/ ٣٦).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "من ذهب.. من فضة" يشير إلى تنوع مظاهر النعيم فيها، كما ورد في القرآن الكريم: {يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج: ٢٣]، {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿لَهُ قَوَارِيرٌ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]، ونحو ذلك من الآيات المباركة.

وقوله: "وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم...."، هذا قبل أن يكشف لهم ربهم الحجاب، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، كما دلت على ذلك الأخبار الصحيحة، وسوف يأتي بعضها بإذن الله تعالى.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وفيه بيان صفة الجنة وسعتها وما فيها من مظاهر النعيم، وتعدد درجاتها ومنازلها وتفاوتها، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

الحديث الرابع والثلاثون

عن المستورد بن شداد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكَلَهُ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ كُسِيَ ثَوْبًا بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

الحديث يحذر من ثلاثة أفعال مشينة، تُقضي بصاحبها إلى عاقبة وخيمة، وعقوبة شديدة من الله تبارك وتعالى، وقوله: "من أكل برجل مسلم أكلة" المراد: من انتفع أو كسب أكلة نظير أن يقع في عرض مسلم، أو في مقابل أن يؤذيه بالقول أو الفعل، ومثال ذلك: أن يجتمع الرجل بشخص فيأكل عنده، أو يحصل منه على أي مكافأة مادية أو معنوية، مقابل الوقوع في عرض مسلم آخر، بكشف بعض معانيبه، أو رميه ببعض التهم، ونحو ذلك، وعبر بالأكل لأنه أكثر ما ينتفع به مثل هؤلاء وأقربيه، وعادة ما يفعلون هذا عند الولائم، فيكون جزاؤه في الآخرة من جنس عمله في الدنيا، فله في مقابلها طعام من النار يوم القيامة، ولكن شتان بين طعام جهنم وعذابها، وطعام الدنيا الزائل أيضًا.

والثاني: "من كُسي ثوبًا برجل مسلم"، فهذا يفعل نحو ما يفعله الأول، غير أنه يحصل مقابل فعله على ثوب أو كسوة، أو أية مكافأة أخرى مادية، فيعاقبه الله جل وعلا بأن يكسوه مثله من جهنم، لأنه توصل إليه بالوقوع في عرض مسلم، فيكون جزاؤه عقوبة من جنس فعله في نار جهنم، والعياذ بالله تعالى.

والثالث: "من قام برجل مقام سمعة ورياء"، أي: ومن وقف في موقف يتباهى أمام الناس بادعاء الصلاح والاستقامة، لينال ثناء الناس، خاصة أصحاب المال والجاه منهم، لينال حظوتهم، ويكتسب المال والجاه منهم، وقيل: بل المراد من امتدح أحد أصحاب الجاه والمال، ونسب إليه ما ليس فيه من الصلاح والخصال الحسنة،

(١) رواه أبو داود (٤٨٨١)، وأحمد (١٨٠١١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٠)، والحاكم (٧١٦٦).

لينال حظوته، ويتكسب منه بعض مكاسب الدنيا، كما نرى في زماننا هذا ممن يتملقون الأمراء والمدراء والأعيان، ليخرج منهم بمصلحة مادية، ويحتمل أن يشمل المعنى الأمرين معًا، وهذا أيضًا ينال جزاءه يوم القيامة من جنس عمله، حيث يُفتضح يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، نسأل الله العافية، ونعوذ به من الخذلان.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وأن الجزاء يكون من جنس العمل، وفيه التحذير الشديد من الغيبة والنميمة ورمي الناس بالمعائب والتهم من أجل مصلحة دنيوية، وفيه أيضًا: بيان صفة العذاب الذي يعذب به بعض الناس في الآخرة، والله المستعان.

الحديث الخامس والثلاثون

عن صهيب الرومي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: إذا دخل أهل الجنة الجنة، أي: إذا استقروا فيها بعد العرض ووزن الأعمال، واجتياز الصراط، والوقوف على القنطرة للمقاصاة والمخالصة، وقوله إخبارًا عن رب العزة جل وعلا: "تريدون شيئًا؟"، هذا من زيادة الفضل والنعمة، وهو سؤال تمهيد لما سيأتي بعد ذلك من بيان الزيادة والفضل، وقوله إخبارًا عن أهل الجنة: "ألم تبيض وجوهنا؟"، هذا مصداق قول الله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: ١٠٧]، وكذا قوله إخبارًا عنهم: "ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار"، هذا إقرار مع التعداد لفضل الله ونعمه عليهم في ذلك اليوم، وإشارة لقول الله تعالى: {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥]، وفيه أيضًا: عدم توقع ما هو أفضل من هذا، فإن تبييض وجوههم، والرضا عنهم مع إدخالهم الجنة وإنجائهم من النار كان منتهى أملهم، فلا يتخيلون وجود شيء أفضل من هذا، ولكن الله الكريم، أفضاله لا تنتهي، والفضل الذي يأتي على غير توقع واحتساب يكون الفرح به أشد.

وقوله: "فيكشف الحجاب"، جاء مفسرًا في حديث آخر: «حِجَابُهُ الثَّوْرُ»^(٢)، فحينئذ يرى المؤمنون ربهم، ويدركون أن رؤية ربهم هي أعظم نعيم الجنة، وذلك قوله: "فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل"، نسأل الله السداد.

(١) رواه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧)، وأحمد (١٨٩٣٥).

(٢) رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، وأحمد (١٩٦٣٢).

وهذا الحديث يفسر قول الله تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، قال البغوي: "أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى، وهي الجنة، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هذا قول جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحذيفة، وأبو موسى، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن، وعكرمة وعطاء، ومقاتل، والضحاك، والسدي"^(١).

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة نعيم الجنة، وإثبات رؤية المؤمنين ربهم عز وجل، وهذا أعظم نعم الجنة على الإطلاق، نسأل الله أن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

* * *

(١) تفسير البغوي: (٤/ ١٣٠).

الحديث السادس والثلاثون

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرَّجَالِ، يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَغْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ غُصَاةٍ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»^(١).

المتكبرون: هم المتعالون على عبادة الله تعالى، والمتعاضمون على خلقه، محقرين من سواهم، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أمثال الذرّ" أي: في صغر حجم النمل، وقيل: الذر: ما يرى من ذرات الغبار في شعاع الشمس حين يتسلل إلى المكان الظليل، والله تعالى أعلم، وقوله: "في صور الرجال"، أي: على هيئة الرجال بالرغم من صغر أحجامهم، وتلك العقوبة تتلاءم مع تكبرهم، فإنهم لما رأوا أنفسهم أعظم ممن سواهم، أدلهم الله تعالى وصغره وحقر شأنهم، فعملوا بنقيض قصدهم، جزاء وفاقاً.

وقوله: "يغشاهم الذل من كل مكان"، الذل هو المهانة، فإنهم لما صغرت أحجامهم جعل الناس يطؤونهم بأقدامهم من كل مكان، وذلك فيه مهانة شديدة لهم، ثم إنهم بعد ذلك تسحبهم الملائكة بأمر ربها إلى سجن في جهنم، والسجن: هو المكان المظلم الضيق المعد للحبس، وهذا السجن يسمى (بولس) - بفتح الباء أو بضمها، وفتح اللام -، وهو مأخوذ من "الإبلاس"، بمعنى: اليأس، مثلما جاء في قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} [المؤمنون: ٧٧]، فالداخل في هذا السجن يائس من الخلاص عما قريب، نسأل الله العافية.

وقوله: "تغلوهم نار الأنيار"، أي: تأتي من فوقهم، وتغشاهم وتحيط بهم نار، والأنيار: جمع نار، فيكون المعنى: نار النيران، قال بعض أهل العلم: "وإضافة النار إليها للمبالغة، كأن هذه النار لفرط إحراقها، وشدة حرها، تفعل بسائر النيران ما تفعل

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٦٦٧٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧).

النار بغيرها"^(١)، وقيل: إن نار الأنبياء هي أصل نيران العالم، وهي المشار إليها بقوله تعالى: {الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى} [الأعلى: ١٢]، والله تعالى أعلم.

وقوله: "يسقون" أي: تسقيهم الملائكة، وهم زبانية جهنم، أعادنا الله منها ومنهم، "طينة الخبال" هي عصارة أهل النار، فاللفظ مفسر في السياق ذاته، وعند الترمذي تقدم التفسير على اللفظ، بينما هو عند أحمد: "مِنْ طِيْنَةِ الْخَبَالِ، عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ"، تقدم اللفظ على التفسير، والمراد بعصارة أهل النار: ما يسيل من دم وقح وصيد من أهل النار وننتهم، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة العذاب الواقع بفئة مخصوصة من العصاة، وهم الذين يتكبرون على الناس بغير الحق، وفيه: ذم الكبر والمتكبرين، نسأل الله العلي العظيم أن يوفقنا لما يحب ويرضى، ويصرف عنا الكبر، ودنسه، وعاقبته.

(١) انظر تحفة الأحوذى: (٧/ ١٦٣).

الحديث السابع والثلاثون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أَهْدَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُبَّةً سُنْدُسٍ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ الْحَرِيرِ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمُنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا»^(١).

السندس: كلمة فارسية الأصل معربة، تعني: الحرير الناعم الرقيق الفاخر، على خلاف الإستبرق: وهو الحرير السميك واللامع، وقد أهدى أكيدر دومة، حاكم دومة الجندل، من نصارى العرب، إلى النبي صلى الله عليه وسلم جبة من الحرير الناعم اللامع ليلبسها، ولم يكن يعلم أن الإسلام يحرم لبس الحرير على الرجال، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم إعجاب الصحابة رضوان الله عليهم بها، قال لهم: "والذي نفس محمد بيده"، وهذا قسم بالله عز وجل، وكان صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يقسم به، "لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا"، وهذه إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى أدنى ثياب سعد رضي الله عنه في الجنة، لأن المناديل يمسح بها الأيدي وغيرها من الدنس والوسخ، فهي أقل ما يملكه الشخص، فيكون المراد بهذا القول: أن أقل ما يكون لسعد بن معاذ رضي الله عنه في الجنة أفضل من هذا الحرير الذي أعجبكم.

وسعد بن معاذ رضي الله عنه صحابي جليل، كان من سادة الأنصار، وأصيب بغزوة الخندق، واختاره بنو قريظة ليقضي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم على إثر خيانتهم العهد مع المسلمين، وكان حليفًا لهم في الجاهلية، فتوسموا فيه أنه سيرفق بهم في حكمه، لكنه قضى عليهم بقتل رجالهم، وسبي نسائهم وذريتهم، ولم يحملهم حلفه القديم معهم على خيانة الله ورسوله، ثم قضى نحبه بعد حكمه، فرضي الله عنه وأرضاه.

(١) رواه البخاري (٢٦١٥، ٣٢٤٨)، ومسلم (٢٤٦٩).

وفي الحديث: إثبات الجزاء والمعاد، وبيان صفة نعيم الجنة، فإن كانت المناديل فيها أفضل من حرير الدنيا الفاخر، فما الظن بغيره من الثياب والمتاع؟ وفيه أيضاً: فضل سعد بن معاذ رضي الله عنه، وبشارة له بالجنة، وهذا يدل على أن المبشرين بالجنة لا ينحصرون في العشرة المشهورين، والله الموفق.

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»^(١). وفي بعض طرقه: «الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ، وَالَّذِي يَطْعُنُهَا يَطْعُنُهَا فِي النَّارِ».

قوله صلى الله عليه وسلم: "من تردى من جبل"، يعني: من ألقى بنفسه من مكان عالٍ بقصد إتلاف نفسه، لا من وقع دون إرادة منه، والجبل يراد به: كل مكان مرتفع بما يكفي لموت من يتردى من فوقه، كالبناء المرتفع، أو الأسوار الشاهقة، وما شابه ذلك.

وقوله: "من تحسى سمًّا" أي: شرب وتجرع السم عامدًا ليقتل نفسه، ويدخل فيه كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الموت، كبعض الأدوية التي من خصائصها التسبب في الموت، وقوله: "يجأ بها في بطنه" يعني: يطعن بها نفسه، والحديدة لفظ عام يشمل كل أداة صالحة للطعن والقتل، كالسكين ونحوها.

فالحديث يحذر أشد التحذير من أن يقتل الإنسان نفسه، وإن كان الإسلام نهى الإنسان عن مجرد تمني الموت بسبب ضرر وقع بالإنسان، فما بالك بمن يفعله بنفسه؟ فحفظ الأنفس من مقاصد الشريعة الثابتة الراسخة، واختلف أهل العلم في قوله صلى الله عليه وسلم: "خالدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا"، فقد تمسك به المعتزلة وغيرهم ممن قال بتخليد أصحاب المعاصي في النار، وذهب آخرون إلى القول بكفر من قتل نفسه عامدًا متعمدًا متمسكًا بهذه العبارة، قال الحافظ: "وأجاب غيره بحمل ذلك على من استحلّه، فإنه يصير باستحلّاله كافرًا، والكافر مخلد بلا ريب، وقيل: ورد

(١) رواه البخاري (١٣٦٥، ٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

مورد الزجر والتغليظ، وحقيقته غير مرادة، وقيل: المعنى أن هذا جزاؤه، لكن قد تكرم الله على الموحدين فأخرجهم من النار بتوحيدهم، وقيل: التقدير: مخلصًا فيها إلى أن يشاء الله، وقيل المراد بالخلود: طول المدة، لا حقيقة الدوام، كأنه يقول يخلد مدة معينة، وهذا أبعدهما^(١).

قلت: والذي عليه جمهور أهل السنة: أن من مات على التوحيد لا يخلد في النار، ولو ارتكب ما ارتكب من الكبائر، أما قوله في هذا الخبر - ونحوه - أنه يكون في النار خالدًا مخلصًا فيها، فمحمول على أنه استحل قتل نفسه، فكفر باستحلاله الذنب، لا على اقترافه الذنب نفسه، واستدلوا بحديث الطفيل بن عمرو الدوسي، الذي أسلم وهاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهاجر معه رجل من قومه، فاجتوا المدينة - أي: لم يتحملا المقام فيها - فمرض صاحب الطفيل، وجزع لمرضه، فأخذ مشاقص له - وهو نصل السهم الحاد والعريض -، فقطع بها براجمه - أي: مفاصل أصابعه -، فشخبت يداه - أي: سال دمها بشدة - حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه وهيئته حسنة، وكان مغطيًا يديه، فقال له الطفيل: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما لي أراك مغطيًا يديك؟ قال: قيل لي: لن نصلح منك ما أفسدت، فقصها الطفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اللَّهُمَّ وَلِيْدَيْهِ فَاعْفُرْ»^(٢).

قال النووي رحمه الله: "فيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة: أن من قتل نفسه، أو ارتكب معصية غيرها، ومات من غير توبة، فليس بكافر ولا يقطع له بالنار، بل هو في حكم المشيئة، وقد تقدم بيان القاعدة وتقريرها، وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليد قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار، وفيه إثبات عقوبة بعض أصحاب المعاصي، فإن هذا عوقب في يديه، ففيه رد على

(١) فتح الباري: (٣/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) رواه مسلم (١١٦)، وأحمد (١٤٩٨٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦١٤).

المرجئة القائلين بأن المعاصي لا تضر، والله أعلم^(١).

قلت: وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة عذاب مخصوصة لفئة مخصوصة من العصاة، والوعيد الشديد لمن قتل نفسه، والله المستعان.

(١) شرح صحيح مسلم: (٢/ ١٣١).

الحديث التاسع والثلاثون

عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْمَاءِ، وَبَحْرَ الْعَسَلِ، وَبَحْرَ اللَّبَنِ، وَبَحْرَ الْخَمْرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الْأَنْهَارُ بَعْدُ»^(١).

المراد بالبحر: النهر العذب، لا البحر بمعناه الجغرافي المعروف، وهذه الأنهار تجري تحت قصور أهل الجنة ليشربوا منها، ويتنوع محتواها مما يشربونه، فمنها: أنهار من ماء عذب، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، أي: يتلذذ بها أهل الجنة، فيجدون فيها تمام اللذة من غير سكر، وقوله صلى الله عليه وسلم: "ثم تشقق الأنهار بعد"، أي: ثم تنفرد من تلك البحور الأنهار الجارية، ومجاري الماء الصغيرة والقنوات، وكل ذلك مسخر ليتلذذ به المؤمنون ويتنعمون به، وهذا كما جاء في كتاب الله جل وعلا: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} [محمد: ١٥].

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «سَيِّحَانُ وَجَيَّحَانُ، وَالْفُرَاتُ وَالنَّيْلُ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(٢)، فأما سيحان وجيحان فهما نهرا عظيمان ببلاد الأرمين بالقرب من الشام، وأما النيل والفرات فمعروفان، وقوله صلى الله عليه وسلم: "كلٌّ من أنهار الجنة" اختلفوا في معناه، فقيل: إن أصل هذه الأنهار ومادتها الأولى من الجنة، وقيل: إنما المراد أنها أفضل أنهار الأرض وأعظمها بركة، وأكثرها نفعاً وعذوبة، والحديث على التشبيه والمجاز، بمعنى أنها تشبه أنهار الجنة في الصفاء والنفع، وقيل: إن الاشتراك في الاسم فقط، وأن ثم أنهاراً في الجنة

(١) رواه الترمذي (١٠٣٢)، وأحمد (٢٠٠٥٢)، وابن حبان (٧٤٠٩).

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٩)، وأحمد (٧٨٨٦).

اسمها النيل والفرات وسيحان وجيحان، وليست هي الأنهار المعروفة في الدنيا، الله أعلم.

والمقصود من ذلك كله: أن الإسلام نزل بأرض يندر فيها الماء، ويعتمدون فيها على مياه المطر، وما يخرج من جوف الأرض، فبشر الوحي أهل هذه البلاد بأن الجنة بها الكثير من العيون والأنهار بأنواع مختلفة، لحثهم على الإيمان، وحث المؤمنين على العمل والاجتهاد للظفر بدخول الجنة، والتمتع بتلك الأنهار، والله الموفق.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان صفة نعيم الجنة، وما فيها من الأنهار بمختلف طعومها، نسأل الله العلي القدير أن يجعلنا من أهل جنته ورضوانه.

الحديث الأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»، مُصَدِّقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧] (١).

قد أفاضت نصوص الكتاب والسنة في وصف نعيم الجنة، وما أعده الله لأهل السعادة من عبادته، على النحو الذي قدمنا بعضه آنفاً، ومع ذلك يظل نعيم الجنة بعيداً عن أي تصور، لأنه عالم غيبي لا يشبه عالمنا الذي نحياه، وهذا الحديث يقرر أن ما أعده الله تعالى لعباده يفوق أي تصور قد يخطر على عقولهم وقلوبهم، فضل الله عظيم، أعظم مما يستوعبه إدراك أحد من خلقه.

وقوله جل وعلا في الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين" يعني: خلقت وهبأت في الجنة للعباد الذين يعملون الصالحات، ويسعون إلى فعل الخيرات، ما لم تره عين من أعين الخلق، ولم تسمع بوصفه أذن في الدنيا، وفي قوله "عبادي" تشريف وتكريم لهم، وقوله: "ولا خطر على قلب بشر"، أي: ولم يمر على عقل أحد ما يشبهه أو يتصوره من النعيم، ففيها ما هو أفضل وأعظم من كل شيء يتخيله عقل أو قلب من نعيم الجنة.

وقوله: "ومصدق ذلك" هذا من كلام أبي هريرة رضي الله عنه، يستشهد بالآية التي تصدق معنى الحديث، فقد جاء في بعض طرق الحديث: "قال أبو هريرة: اقْرَأُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]".

والآية التي استشهد بها أبو هريرة رضي الله عنه تنثي على المؤمنين الذين إذا ذُكِرُوا بآيات ربهم {اٰخَرُوا سُبْحًا وَبَحَثُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} ﴿٢٨﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤) وموضع، ومسلم (٢٨٢٤).

مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٥ - ١٧]، قال أهل التفسير: "أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم، وقال الحسن البصري: الخفية بالخفية، والعلانية بالعلانية"^(١).

وإخفاء هذا النعيم يؤدي إلى التشوق والرغبة فيما عند الله جل وعلا، فهو جزاء لا يحيط به إلا الله تعالى لعظمه، وفي الحديث: إثبات المعاد والجزاء، وبيان سعة فضل الله سبحانه، وأنه يخلق ما يشاء مما لا يحيط به البشر.

أسأل الله العلي العظيم أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يهدينا سواء السبيل، ويحسن عاقبتنا، ويجعلنا من عباده السعداء المقبولين، ويحشرنا في زمرة الصالحين، ويلحقنا بعباده المحسنين في جنة الخلد بمنه وجوده ورحمته، وأن يصرف عنا عذاب القبر، وعذاب النار، وكل ما يقرب إليهما من قول وعمل، هو أهل ذلك والقادر عليه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

(١) تفسير السمعاني: (٤/ ٢٥٠).

محتوى الكتاب

٢	خطبة الكتاب
٥	القسم الأول: بعض ما جاء من الأخبار في الموت وحياة البرزخ
٥٢	القسم الثاني: بعض ما جاء من الأخبار في وصف القيامة
١٢٠	القسم الثالث: بعض ما جاء من الأخبار في وصف الجنة والنار